أبو القاسم سعد الله

شعفة خضراء

قصص



أبو القاسم سعد الله

سعفة خضراء

قصص

المؤسسة الوطنية للكتاب
3 ، شارع زيروت يوسف
الجزائر

رقم النشر : 85/1797

الجزائر ــ 1986

مقدمة

بدأ اهتمامي بالشعر والقصة في وقت مبكر ، ثم تغلب عندى الشعر على القصة ، وأخيرا تفرغت للمقالة والدراسة وأهملت القصة والشعر . كتبت قصة سنة 1954 بعنوان (سعفة خضراء) ونشرتها في جريدة البصائر ، ومهدت لها بهذا التمهيد المعبر .

«يكاد الأدب الجزائري يكون خاليا من عنصر القصة التي أصبحت مادة أولى لمفاهيم الآداب العالمية الحديثة .. مما جعل الباحثين في انتاجنا لا يظفرون بالطبيعة الاجتماعية التي تعيشها الأمة وتمثلها فيما تبديه من نتائج عقلية ونفسية وذاتية وانسانية . وذلك الخلو البالغ هو الذي دفعني الى ان (أحاول فقط) موضوع القصة ، وان ابرز فيه معالم من حياتنا الاجتماعية ظلت منسية ، وان أتعرض لتحليل نفسيات الاشخاص (خصوصا بطل القصة) ، وان أصور للقارىء بعض الحوادث الجارية بيننا في كل حين وفي كل مكان . وقد اهتممت بالعنصر النفسي أكثر من غيره من الاجواء ، نظرا لطبيعة الشخصية التي تمثل القصة أو تتمثل فيها .. ورائدي في كل ذلك خدمة ادبنا الحديث ليتمكن من مواكبة النهضة العربية في مختلف الاقطار .»(1)

---

(1) البصائر 21 ماي 1954

ولم تكن سعفة خضراء اول قصة كتبتها ولكنها اول قصة منشورة وأول قصة توفر لها عنصر النضج الى حد بعيد . وكانت تشيع في بداية الخمسينات الاحاديث بين الادباء عن اثر المدرسة النفسية في الادب ومدى تأثر الأدب العربي بالآداب الاجنبية التي استخدمت العلوم الحديثة في تقنياتها . وكنت عندئذ من الشغوفين بمطالعة المترجمات الادبية والانتاج العربي المتأثر بالآداب الاجنبية والعلوم الحديثة أيضا . ولذلك كان نسيج (سعفة خضراء) من خيوط تلك المطالعات ومحاولة منى تطبيق بعض المذاهب الأدبية على مسار القصة ، فكان بطلها (جمال) نموذجا لحالة تكاد تكون شاذة وهي الصراع بين العلم والتقاليد ، بين الفرد والمجتمع .

ولعله ليس من التجاوز اطلاق اسم القصة على (ليلة غرام) . فهي في الحقيقة قصة مراهق يحب فتاة ولكن الوصول اليها لا يمكن الا في الاحلام . وذلك لوقوف العادات والتقاليد في وجه لقاء اليقظة . فما كان من البطل الا أن يروي شوقه العارم الى فتاته بطريقة ضبابية وفي شكل رسالة لم يكتبها في الواقع الا لنفسه . ان قصة (ليلة غرام) لا تخرج ايضا عن استخدام مذهب علم النفس في العمل الادبي . ففيها الحديث عن الكبت والناس والشوق واللقاء المستحيل .

وبالاضافة الى التقاء قصة (سعفة خضراء) و(ليلة غرام) في استخدام المذاهب النفسية في العمل الأدبي ، فانهما تلتقيان أيضا في انهما من انتاجي المبكر اذ كتبتهما وأنا طالب بتونس . واذا كنت آسف على شيء في هذا الصدد فهو ضياع عدد من القصص المشابهة التي كنت قد كتبتها أيضا بتونس اثناء دراستي ، ولكني لم اجد لها الآن اثرا بين أوراقي الباقية .

وتجتمع قصتا (ممنوع الدخول) و (مرارة التبغ) في انهما كتبتا بالقاهرة اثناء دارستي هناك أيضا . وفيهما يظهر الاختلاف بينهما وبين (سعفة خضراء) و (ليلة غرام) من حيث النضج الفني ومن حيث الموضوع . واذا كان التقييم الفني متروكا للنقاد فاني أقول هنا بان موضوع (ممنوع الدخول) سياسي قومي . ذلك ان بطلها كان مناضلا في صفوف الثورة خارج الجزائر وحين

جاءه الأمر بالدخول الى الوطن للقيام بمهمة ثورية لم يستطع ان يجد وسيلة يقنع بها السلطات الفرنسية لتسمح له بالدخول الا بحصوله على جواز سفر من احدى السفارات العربية . وبذلك حقق هدفه الوطني والقومي معا .

وأما قصة (مرارة التبغ) فهي تعبير عن حياة الفلاحين الجزائريين عشية الثورة . ذلك ان الفلاح في مسقط رأسي كان يعمل ليلا ونهارا محروما من لذائذ الحياة ، منحني الظهر ، خشن اليدين ، اغبر الوجه ، يصارع الرمال والحرارة الصحراوية ، لكي ينتج بعض الارطال من التبغ . ولكن السلطات الاستعمارية كانت تحصي له شجيرات الدخان وتراقبها حتى لا تزيد بعد ذلك او تنقص ، ثم تجبره على بيع انتاجه لاحدى شركاتها التي كانت تحتكر تصدير وتسويق الدخان . فاذا حاول أحد الفلاحين ، مثل بطل القصة (أحمد) ، ان يوفر بعض الشجيرات لبيعها في السوق الحرة ، فان مصيره يكون السجن والتغريم ومصادرة أملاكه . وقصة (مرارة التبغ) تروي اذن كيف انتهى احمد الى هذا المصير .

أما قصة (فتاة القرية) فهي نوع من التذكر لما حدث في القرية بين قائدها وبعض أعيانها من جراء انغماس القائد في الشهوات واستهتاره بالقيم وبالناس واعتماد السلطات الاستعمارية على هذا النوع من أصحاب النفوس الضعيفة . وليست هذه القصة سوى نموذج لما كان يحدث في القرى الجزائرية من ظلم وتعسف ايام الاستعمار . ولكنها مع ذلك تعبر عن يقظة الضمير الوطني وبداية الحس الثوري ، شأنها في ذلك شأن قصة (مرارة التبغ) .

والواقع ان جميع هذه القصص «واقعية» ، بمعنى انها حدثت لاصحابها فعلا ، وليست من القصص المتخيلة او الاسطورية . اما أسماء ابطالها فكلها مستعارة وليست حقيقية . ولعلك تفهم أنني لو سميت كل بطل باسمه الحقيقي لتأذى بذلك بعض الناس من الاحفاد والورثة الذين لا ذنب لهم فيما فعل أباؤهم أو جناه اقاربهم في الماضي .

وهناك ، بالاضافة الى القصص الخمس ، لوحتان لبعض المواقف التي حدثت لي او لغيرى في يوم من الايام . فلوحة (أديب الخلود) تعبر عن

شخصية طموح ثائرة تريد التجديد والتغيير ولكن رتابة الحياة وجمود الافكار تصدمانها ولا تتركان لها مجالا لتحقيق طموحها وثورتها ... فما كان من هذه الشخصية الا ان لجأت الى العبثية والسخرية لتعبر بهما عن احساسها المكظوم .

وأما لوحة (عندما لبست العمامة) ، فهي تصور تناقض عقلية جيلين من نفس المدرسة الفكرية (جامع الزيتونة) . فمن جهة هناك جيل العمائم المكورة والملابس الفاخرة ذات الذيول الطويلة ، والهيئة الدينية المصطنعة ، والعقلية المتحجرة ، ومن جهة أخرى هناك جيل مضطرب البال حائر القلب بين ما كان يدرسه في جامع الزيتونة وما كان يشاهده ويعيشه من انماط الحياة الاروبية التي كانت تطغي على المجتمع العربي المسلم في تونس . واللوحة وان كان فيها عقوق من ناحية فانها كانت من ناحية أخرى صادقة .

وانني هنا لا ادعى قيمة معينة لهذه القصص واللوحات . وحسبي ان أذكر انها كانت من ابكار الأدب الجزائري الحديث . فقد كنت فيها ثائرا على الجمود السياسي والاجتماعي والأدبي ، وما يزال هذا ديدني وشعاري الى ان ألقى الله .

أبو القاسم سعد الله

قمـار (الجزائر)

8 فبراير 1984

تصدير

بقلم : الدكتور أبو العيد دودو

لا مناص لي من الاعتراف أولا بأنني فوجئت بقدر ما اغتبطت عندما طلب مني صديقي الدكتور أبو القاسم سعد الله ، عبر مكالمة هاتفية ، أن أكتب مقدمة لمجموعته القصصية . ولست أشك الآن في أن تلك المفاجأة وتلك الغبطة هما اللتان دفعتا بي الى الموافقة على طلبه فورا ، وذلك قبل أن أراجع نفسي وأعرف مقدار قابليتي لنقد مجموعة قصصية ، فقد تكون كتابة القصة في بعض الأحيان أيسر من نقدها وتقويمها :

وأعتقد أن قراء الدكتور أبو القاسم سعد الله ، الذين تعودوا على قراءة قصائده الشعرية ، وبحوثه التاريخية ، ودراساته الأدبية ، سوف يشعرون بما شعرت به أنا تماما ، فهم يعرفون مثلي ، أو يعرف بعضهم على الأقل ، أن ما نشره من قصص لايتجاوز قصتين اثنتين ، تفصل بينهما فترة زمنية طويلة . ومن ثم لابد أن يتساءلوا ، دون أن يكون لديهم ما يدعو الى الشك في هذا الأمر ، كيف أمكن أن تتحول القصتان الى مجموعة قصصية ؟ هذا على الرغم من أنه ليس هناك ما يحول ـــ مطبعيا ـــ دون ذلك !

غير أن هذا التساؤل سوف يزول ، عندما يعرفون من مقدمة المؤلف أنه كان قد بدأ بكتابة الشعر والقصة ، ثم انصرف عنها وقصر اهتمامه على الشعر وحده . وقد يكون انشغاله بالدراسات الأدبية والنقدية ، وخاصة عندما سيطرت عليه فكرة التعريف بالأدب الجزائري المكتوب باللغة العربية .. ممثلا في أبرز شعرائه ، هو الذي صرفه عن كتابة القصة ، كما صرفه اهتمامه بالدراسات التاريخية في فترة متأخرة عن كتابة الشعر بشكليه التقليدي والحديث . ولست أدري لماذا توقف أيضا عن نشر ما كان قد كتبه من قصص قصيرة !

ولا شك أن لصدور هذه المجموعة القصصية دلالة خاصة ، فهي تدل من جهة على مدى ما عرفه انتاج المؤلف من تنوع ووفرة ، كما تدل من جهة أخرى على ما كان له من ريادة في بعض الأنواع والدراسات الأدبية . وتدل من جهة ثالثة على أن محاولاته في ميدان القصة القصيرة كانت ناجحة أيضا ، وأرجو ألا يتصور قراء المؤلف أنني أقرر هذا من باب المجاملة ، فأنا أتصور أن المجاملة لا تعد من باب .. الأدب !

وتتضمن هذه المجموعة خمس قصص ، وهي «فتاة القرية» ، و «سعفة خضراء» ، وقد اختارها المؤلف لتكون عنوانا لمجموعته ، و «مرارة التبغ» ، و «ليلة غرام» ، و «ممنوع الدخول» ، وتحتوي فوق ذلك على محاورتين ، هما «عندما لبست العمامة» ، و «أديب الخلود» ، وكم كنت أود لو أن الدكتور سعد الله نشر هاتين المحاورتين في كتاب آخر من كتبه السابقة ، في كتاب «تجارب في الأدب والرحلة» مثلا ، حتى يبقى للمجموعة طابعها القصصي المحض !

ويبدو لي أن قصة «سعفة خضراء» ، تستحق عناية أكبر من غيرها من بقية قصص المجموعة ، فهي القصة الوحيدة التي نشرت وقرأها الناس في حلقاتها المسلسلة بجريدة البصائر ، وذلك قبل الثورة وقبل أن يعرف هذا النوع من القصص الفني وما يصوره من أزمات نفسية حادة ، يفرضها مستوى الوعي الذي وصل اليه بطل القصة .

فهذا البطل يعيش منذ البداية وضعا غير عادي ، وهو يعرف هذا الوضع معرفة جيدة ، ولكن معرفته به ليست معرفة سابقة ، وانما هي معرفة آنية ، معرفة تمت عن طريق الوعي ! وتعد فرقا بين عالمين ، عالم الطلب أو عالم الدراسة ، وعالم الغربة ، عالم آخر ستتواصل غربته فيه . ويتمثل الوضع الجديد في انهائه لفترة الطلب . وكانت أيام الطلب بالنسبة له عالما خاصا .. عالما غامضا ، حاول دائما أن ينيره بفكره ، ليستشف مستقبله ، الا أنه عجز عن ذلك لأسباب عديدة ، تكمن كلها في العالم الغريب الذي يعيش فيه .

وغموض عالم الطلب لم يكن يعني أكثر من أنه عالم بلا هدف ، بلا حياة . فقد كان البطل يعيش مع أساطيره المترسبة ، ويتعلم أفكارا ، ويتبنى آراء ، ويكتشف أضواء ، ولكن ذلك كله لا علاقة له بحياته ، لا صلة له بواقعه ، وواقعه .. غربة ! غربة داخل الوطن وخارجه ، وفي عالم الواقع من الغموض ما في عالم الطلب . كلاهما صنو للآخر . وأساس الغموض في عالم الطلب أن البطل كان يعيش بعيدا عن كل شيء ، كان يعيش العلم في صورته المجردة ، يعيشه بعيدا عن الناس بعيدا عن العالم ، بعيدا عن الدنيا الواعية !

وهذا العلم نفسه ، وهو صورة آخرى لواقعه ، لا هدف له غير الخضوع ، غير الاستسلام للغيبيات والهدوء الروحي ، الاستسلام للتقاليد والأعراف السائدة ، وكأنه يهيء نفسه لعالم آخر غير عالم الواقع ! ولكن طبيعته كانت تنزع به الى شيء آخر ، كانت تريد له أن يترك أثره في هذه الدنيا ، في هذه الحياة .. التي لم تعرف طعم الحياة بعد ! وانتهاؤه من دراسته هو الذي جعله يحس بذلك بصورة أكثر حدة !

أما أساس غموض عالم الغربة .. الواقع القديم الجديد ، الذي هو عائد اليه ، فيتمثل في أنه عالم لا يتلاءم مع روحه المتمردة ، لأن عالم هذه الروح ليس هو عالم الواقع ، ليس عالم المدينة ، الذي رفضه في أيام الطلب بكل ما فيه من صخب وضجيج وحركة ، اذ لم يكن له من هدف آنئذ غير العلم وتحصيل المعرفة ، وانما هو عالم شبه مثالي ، في ظروف واقعه على

الأقل ، قد يغدو في يوم ما نضاليا اصلاحيا ! ولعله تمثل بالذات في الفرحة بالوصول الى هدفه العلمي ، ببلوغه زهرة الخيال .. ولو على نحو ما !

وليس أدل على ذلك من احساسه وهو يحزم أمتعته ، فقد كان يشعر أن اللحظات نفسها تحمله رسائل ، تحمل شهادته العلمية أمانات عليه أن يبلغها ، وتبليغها هو أثره في الحياة ، هو بصماته في عالم الواقع ، وهي بصمات لا تخلو من خطر ما دامت ستلج منطقة محرمة . ومما يحيره أنه يكاد يجهل طبيعة البصمات التي سيتركها في الواقع ، فهو يعلم مسبقا أن واقعه الغريب أكبر منه .. وهو غريب بتقاليده من ناحية ، وبطغيانه من ناحية أخرى .

ذلك أن الواقع يمثل واقعين ، واقعا تقليديا ، وواقعا استعماريا ، والواقع الاستعماري يحتل الصدارة عنده ، ومع ذلك فانه لا يستطيع أن يبوح به بشكل صريح ، فالتقية تمنعه من ذلك . ولهذا يرمز اليه بالشمس المحرقة التي ترسل سياط لهيبها المدمر ، وانها لترسلها في يوم تخرجه ، مما يجعل هذا الواقع الاستعماري حاضرا معه في كل لحظة ، وقمعه يشتد كما يشتد قيظ الشمس كلما طلع النهار .. كلما أشرق صباح العلم وانتشر الوعي وامتد ظل المعرفة !

ولكن ظل المعرفة ، حين يمتد ، يصطدم بأشياء كثيرة ، يصطدم بالصبر ، ويصطدم بالفضيلة وبالمثل العليا ، قبل كل شيء .. بالتقية ، وكلها لا تطفىء حرارة الشمس ، كلها تخدم الاستعمار . ولا بد من الثورة على ذلك كله ! والبطل ثائر فعلا ، الا أن ثورته لا تستطيع أن تبلغ مداها .. في عالم الواقع ! لأن في أعماقه الكثير مما يحول بينه وبين أداء رسالته العلمية . ولذلك لا يبقى له في النهاية غير البحث عن مهنة متواضعة .. علها تبقي على طاقته الفكرية !

ومن هذه المهنة المتواضعة نكاد نلمح نهاية القصة . فهو الواقع الذي سينتهي البطل اليه فعودته الى مسقط رأسه ، واقامته بين أهله وذويه لا تحرره من حيرته ، ولا تريه أية بارقة من أمل ، فأسرته هي هذا العالم أو الواقع

التقليدي . وما أسرع ما يعود الى حيث بدأ أيام الطلب ، يعود ليخضع هذا الواقع قبل أن يضع أي مشروع لتحقيق آماله وطموحاته . ومن الواضح أن سقوطه في حضن التقاليد والسحر والشعوذة يدل على أن تمرده ــ رغم ما بلغه من ادراك لواقعه ــ لم تكن له جذور حقيقية ، ومن هنا نجده يستسلم كالحمل الوديع عند أول بادرة !

وقد تكون السعفة الخضراء رمزا لطغيان التقاليد على بيئة البطل . وذلك ما يجعلنا نتصور أن الأيام هي التي كانت تحلم .. بالتمرد والثورة والعمل النضالي ، أما البطل فقد كان يعيش يقظة الحياة الخاصة ! فقد زف زفتين ، زفة الفرح والاحتفال التقليدية ، وزفة الزواج السحرية .. دون أن يستجيب لبركانه ودون أن يحرك ساكنا ! وفي ذلك ما فيه من السخرية من المثقف ، الذي سرعان ما ينهار .. أمام تمائم والدته الحنون ، وهو نموذج للمثقف الشرقي بشكل عام !

وهذا أحد الأسباب التي جعلتني أقف وقفة طويلة عند هذه القصة ، وعذري في ذلك أنها ــ في علمي ــ أول قصة من هذا النوع في أدبنا الجزائري ، أرتأيت تحليلها ، من غير أن أهتم بالناحية الفنية ، بهذه الطريقة التي قد لا تروق لأحد ! وخاصة أنها جاءت جزءا من مقدمة مجموعة قصصية !

وتتصدر المجموعة قصة «فتاة القرية» ، وهي تصور العلاقة الغرامية التي قامت بين القائد واحدى فتيات القرية . وتبدأ هذه القصة بداية مغرية فتنقل القارىء الى جو الكتاب ، وتضعه وسط التلاميذ بألواحهم الناصعة البياض ، فيتوقع أن يقرأ قصة شيقة عن عالم المدرسة القرآنية ، الا أن المؤلف سرعان ما يخيب ظنه ، اذ يبعد الحدث عن الوسط الكتابي ، ويحصره في ذهن تلميذ يعتبره أكبرهم سنا ، وأكثرهم ادراكا لما يقع حوله . أما بطل الحدث الحقيقي وعشيقته فلا نعرف عنهما شيئا الا عن طريق الرواية أو عن طريق ما يدور في ذهن الطفل صالح .

وقد اعترف المؤلف أن هذه القصة صياغة حديثة لحادثة قديمة ، ولذلك لا نستغرب حين نجده يحدثنا عن موضوع القصة في كلمات قليلة ، ثم

يبدأ في رواية الحدث ، كأنه يستعمل هنا المنهج التاريخي ، فالحدث يعتبر في الحقيقة منتهيا ، حين أخبرنا في الفقرة السادسة أن «ذلك هو موضوع العلاقة بين القائد والفتاة عبير ، وما نتج عن ذلك من سيلان دماء ، وهروب البعض من القرية ، ثم خروج الموضوع من المجون والغيرة الى السياسة والاقتصاد ، فكيف لا يشغل هذا الموضوع أهل القرية ، كبيرهم وصغيرهم ، ولو كان هؤلاء الصغار في سن صالح ؟ !»

فذلك ما حدث فعلا ، وما روى بعدئذ بشكل مفصل . غير أن أسلوب الرواية ، الذي استعمله المؤلف ، لم يتوقف عند هذا الحد ، وانما ألجأه أيضا الى تقديم تفاصيل لا تخدم القصة ، وتكرار بعض الأحداث بدون مبرر ، فقد تحدث عن انقاذ الكلب لسيده ثلاث مرات ، وتحدث عن انتقال العشيقة وأمها الى قصر القائد مرتين ، كما استعمل أسلوب التحري .. فمن قائل كذا ، ومن قائل كذا ، وكأن الأمر يتعلق بالتثبت من قضية ما ، ولا أظن أن القصة تحتمل شيئا من هذا النوع . ولا أعتقد كذلك أن اشارة صالح الى ما سيطلع عليه زميله من أخبار القائد الجديدة تصلح أن تكون نهاية للقصة .

وتعتبر قصة «مرارة التبغ» من أروع قصص هذه المجموعة ، فهي تقدم صورة في منتهى الصدق عن نضال الفلاح في سبيل اعالة اطفاله . فبطلها أحمد يكافح ويتعب في زراعة التبغ ، ولكن السادة يستولون على معظم ما ينتجه ، فيدفعه ذلك الى اخفاء التبغ ، الذي أجبر على زراعته ، بطريقة سرية . فذهب في احدى الليالي مع صديقه عبد الحميد ، وأخفاه تحت الرمل ، ثم عاد الى بيته لينام أول نومة هادئة . ومضى بعد أيام الى البحث عنه ، فلم يجد له أثرا ، الا أنه تذكر في النهاية أنه وضعه في المكان، الذي أشار به عليه صديقه .

وعاد الى بيته بعد عثوره عليه ، وقد خالط نفسه بعض الاطمئنان ، الا أن ذلك لم يزل عنه قلقه النفسي ، ولم ينسه خوفه من المفتشين ، الذين سيحضرون بين لحظة وأخرى لجمع التبغ والبحث عمن تسول له نفسه اخفاءه عن الانظار وعدم التصريح به . وبعد أن يتم الاتفاق على البيع بينه وبين أحد المهربين يذهب الى السوق ويشتري اللحم ، ويحمله الى زوجته ، ويطلب منها

أن تطبخه ، وأن توزعه على الجيران ، مما جعل أطفاله يتصورون أنهم في يوم عيد ، لأنهم لم يكونوا يعرفون اللحم الا في العيد السعيد .

ويزوره المهرب فيذبح له الدجاجة الوحيدة التي يملكها ، ويقدمها له طعاما في المكان المتفق عليه ، وقبل أن يسلمه بضاعته ، خيل اليه أنه يسمع صوت صديقه عبد الحميد ، فهو الذي يعرف وحده مكان اخفاء التبغ ، فمضى نحو الصوت ليجد نفسه بين أيدى رجال المخابرات الفرنسية . فهذه القصة مؤثرة جدا .. رغم أن الحوار فيها طويل في أغلب الاحيان ..

وقصة «ليلة غرام» تستمد صفاءها وشاعريتها من عالم الأحلام ، فهذا العاشق يزور حبيبته في يقظة الليل ، فترتاع الحبيبة ، وتبدأ في محاورته ولكل منهما منطلق مختلف ، هو يتحدث من عالمه الخيالي ، وهي تحاول أن تقترب من الواقع أكثر ، هو يخشى الزمن ويخشى المستقبل ، فما المستقبل عنده الا صورة من صوره الخيالية ، أما هي فتريد أن تبني علاقاتها على اساس ما تشعر به ، تطمح الى أن تبني عالمها على الصدق ، فصفاء القلب يقهر الزمن والمستقبل . وحين يستيقظ البطل من حلمه يجد يده قابضة على الفراغ .. يعرف أنه لم ينعم بما نعم به في حلمه الجميل !

وفي هذه القصة يخبرنا المؤلف منذ البداية أنه يروى حلما عاشه البطل مع حبيبة قلبه . ويخيل الى أنه يكفي أن نعرف أن ما سيروى عبارة عن حلم لنتصور ما يتخلل هذا الحلم من نجوى قد تحتد ، وعتاب قد يطول ، ثم يعقب ذلك الاتفاق والوئام . ولا يكتفي المؤلف بالحديث عن هذا الحلم في بداية القصة ، وانما يعود الى الحديث عنه في نهاية القصة . وحبذا لو اكتفى بحلم النهاية ، واستغنى عن الرسالة كلها ، فتلك هي المفاجأة التي يهيئها القاص لقارئه !

وكنت أنتظر من المؤلف أن يدخل بقارئه في عالم العواطف ، ما دام الأمر يتعلق بالحب ، الا أنه يلجأ به الى نقاش فكري بين الحبيب وحبيبته القاسية ، وقسوتها هذه مستمدة ، فيما يبدو ، من الحلم الذي عاشه الحبيب .. ذلك أن الحبيبة لا تظهر الحب لحبيبها الا في .. النهاية ! ولست

أدري لماذا فصل المؤلف الفقرة الأخيرة .. المتعلقة بالعناق والدموع .. عن الحلم بكامله مع أنها تابعة له ومن صميمه ! أم تراه أعتبرها جزءا من المستقبل الذي يخشاه على غرار بطل السعفة الخضراء ؟!

وتقوم قصة «ممنوع الدخول» على حادثة بسيطة ، وهي أن مناضلا مغتربا استدعته جبهة التحرير الى الجزائر ، فحالت السلطات الفرنسية بينه وبين العودة خشية أن ينضم الى الثوار .. رغم اظهاره لرسالة تخبره بمرض أبيه ، فيحتال على السلطة الفرنسية الى أن يتمكن من الدخول الى وطنه والشروع في تدريب المتطوعين . ورغم بساطة هذه الحادثة فان المؤلف استطاع أن يجعل منها قصة شيقة ، لم تخل حتى من عنصر المفاجأة . ولو أن الجمل الأخيرة كان حقها أن تذكر قبل ذلك حتى تظل المفاجأة .. مفاجأة صافية حقا !

ولعل أجمل ما في القصة هو ذلك الحوار النفسي ، الذي يدور في أعماق بطلها . فنجده يقلب أمر خروجه على وجوهه المختلفة ، ويناقش كل ما يخدم قضيته القومية ، لكي يستطيع أن يتحمل مسؤوليته على الوجه الأكمل ، ويقدر من يستطيع تحمل هذه المسؤولية بعد خروجه ، وذلك دون أن ينسى التفكير في زملائه وما قد تجره عليهم أفعاله هو من مصاعب . وتأتي أهمية هذه القصة أيضا من أنها تصور فترة من فترات النضال الوطني داخل التراب الفرنسي ، وتعكس الجو القومي ، الذي يعيشه المواطنون هناك .

ويجمع أسلوب الدكتور أبو القاسم سعد الله في هذه القصص بين الواقعية والرومانسية ، وأجمل وصف واقعي يقدمه لنا هو وصفه للطريقة التي يمحو بها التلاميذ ألواحهم ويجففونها في الشمس ، وكذلك وصفه للألعاب التي يقومون بها أثناء الراحة ، ثم جلوسهم حول معلمهم . ان هذا الوصف جدير أن يعجب به كل من عاش هذه التجربة ، ويشعر بالحنين الى تلك الفترة البريئة ! وذلك كما تصورها قصة فتاة القرية . ولا نعدم أن نجد الأسلوبين معا ، كما هو الأمر في قصة السعفة الخضراء نفسها .

ونجد عنده أيضا استعمالات لغوية قديمة ، وأخرى حديثة ، وهي على أية حال تعكس الفترة ، التي عاشها جيله مع تجديدات المشرق والمهجر

وحركة الاحياء ، وكثيرا ما يستعمل العبارات الشعرية ، وخاصة حين يصف أزمة نفسية أو قلقا مؤرقا ، ولا غرابة في ذلك ، فهو شاعر أو على الأقل كان في تلك الفترة شاعرا ، له صوته المتميز !

ومع أن الدكتور سعد الله لم ينشر ، كما سبق أن ذكرت ، سوى قصة واحدة ، فاني أعتقد أنه كان له دوره في تطور القصة القصيرة ، تمثل بشكل خاص في ادخال العنصر النفسي حينا ، والاتجاه بها نحو الحوار الفكري حينا آخر ، كما تمثل في تجديد الدعوة الى الاهتمام بهذا الجنس الأدبي الجميل وكذلك الدعوة الى التعبير عن الواقع الاجتماعي ومعالجة مشكلاته معالجة صادقة ، فذلك ما يفهم على أية حال من المقدمة التي كتبها لقصة السعفة الخضراء .

هذا واني لأرجو أن أكون قد ذكرت ما يفيد فيما يتعلق بهذه المجموعة القصصية .. ولو الى حد ما ، مع علمي بأن هناك أشياء أخرى كان يمكن أن تضاف الى ذلك ، ولكني أشعر أنني قد أطلت ، ولا يسعني الا أن أكرر مرة أخرى أن كتابة القصة قد تكون أسهل من نقدها ، وانه ليسعدني أن يلج صديقي الدكتور سعد الله هذا الميدان أيضا .. ولو بقصص تؤكد ما كان له من ريادة !

الجزائر ، بن عكنون 1984/7/10 — د . أبو العيد دودو

فتاة القرية

حان وقت محو الألواح . فخرج الأطفال من صحن الجامع يتصايحون وفي يد كل واحد منهم لوح في حجم جسمه ، واتجهوا الى حوض الماء قرب البئر ليمحوا الآيات التي حفظوها . كانوا يتدافعون وأحيانا يضرب بعضهم بعضا عامدين أو غير عامدين . وكان الصغار منهم يتساقطون أحيانا فيدوس عليهم بعض الكبار فيختلط صياح البكاء مع صياح الفرح وتتداخل الأصوات فلا يعرف أيها المستنجد وأيها المنتصر .

تجمع الأطفال حول حوض الماء وأخذوا في محو ألواحهم وهم ما يزالون على صياحهم وتدافعهم . وكان الذي ينتهي الأول من محو لوحه يرفعه عاليا فوق رؤوس زملائه بخيط كان مثبتا في ثقب بوسط اللوح من الجهة العليا . ثم ينتحي ناحية ويأخذ في

تمرير الطين على اللوح حتى تختفي آثار الآيات ويغدو اللوح أملس ناصع البياض ، فلا يكتب عليه ، بعد تجفيفه ، حرف الا ظهر واضحا جميلا ولو كان السمق غير جيد . وكان كل تمليذ ينتهي من محو اللوح وغرائه بالطين يسنده على حائط الجامع في اتجاه الشمس حتى يجف . ثم يأخذ في اللعب ، في انتظار جفاف اللوح .

وكانت الشمس قد أخذت في الصعود من جهة المشرق وما يزال يغلب عليها اللون الأصفر أكثر من اللون الأبيض . ولكن أشعتها المطروحة على الرمال ، مع ذلك ، كانت توحي بأن هذا اليوم سيكون حارا رغم أنه آخر يوم من أيام شهر مايو .

واثناء حصة اللعب كان الأطفال يتراكضون ويطاردون بعضهم البعض ، ويمثلون جري الحيوانات التي يعرفونها ، ولكن صالحا لم يركض معهم . لقد كان من أكبر التلاميذ سنا حتى أن الشيخ المؤدب أمره بالصوم هذا العام ، لأن علامات البلوغ قد بدت عليه ، وكان المؤدب يستعين به على تكتيب الاولاد الصغار ، لذلك كان يشعر انه غير مندمج في هذا الوسط ، فالشيخ المؤدب كان من جيل والده ، والاطفال الآخرون لا يتحدثون بنفس مستواه وهمومه . وما يشغل باله لا يشغل بال الأطفال الآخرين .

كان صالح قد تمرن على أشياء أخرى لم يمارسها بعد الأطفال الآخرون . فقد أصبح يعمل في الحقول مع أهله اثناء

الأوقات الخارجة عن أوقات الجامع . وكان والده يأخذه معه في يوم السوق بالقرية ، فتعلم البيع والشراء ، وخالط الناس الأكبر منه سنا ، واستمع الى الكبار وهم يتحدثون عن القضايا التي تهم الحياة العامة والخاصة . وكان بالطبع لا يشترك في هذه الاحاديث ، لأن الصغار المؤدبين لا يشتركون في الحديث مع الكبار ، ولكنه كان يختزن كل ما وقعت عليه اذناه المفتوحتان الواعيتان ، ويحاول فهمه وتخريجه واعطاءه صورة تناسب ادراكه .

ومن ذلك انه منذ حوالي عام كانت القرية تعج بنوع واحد من الحديث ، لا تكاد تغيره وما يزال الناس لا يملونه ، لأنه حديث يرضي جميع رغباتهم . فالذي يحب الخيال يجد في هذا الموضوع رصيدا هائلا من التخيل والاساطير ، والذي يريد الحقيقة يجد فيه البرهان الناصع على ما يجري في الدنيا من أمور كانوا لا يتصورونها . ذلك هو موضوع العلاقة بين (قايد) القرية والفتاة (عبير) ، وما نتج عن ذلك من سيلان دماء ، وهروب البعض من القرية ، ثم خروج الموضوع من المجون والغيرة الى السياسة والاقتصاد . فكيف لا يشغل هذا الموضوع أهل القرية ، كبيرهم وصغيرهم ، ولو كان هؤلاء الصغار في سن صالح ؟

ويعرف صالح جوانب خفية عن هذا الموضوع ، لا يعرفها كل الناس ايضا . فالفتاة هي بنت السيدة (نخلة) ، التي كانت تسكن مع ابنتها اليتيمة في الحوش القريب من الجامع . وقد كانت الفتاة من أتراب صالح ، وكان يعرفها حق المعرفة ، لا سيما عندما كانت دون الثالثة عشرة . فطالما لعب معها أنواعا

من اللعب ومثل معها ادوارا مما يجري حولهما ، بما في ذلك دور الرجل والمرأة في البيت . ولكنها وقد بلغت الرابعة عشرة تحجبت عن أنظار الناس وحتى عنه . وهذا هو الذي جعله يحس أكثر برجولته النابضة وحرمانه من رؤيتها ، وقد زاده ذلك ايضا شوقا الى معرفة اخبار قصتها مع القايد التي أصبحت في افواه الناس .

ان ما يجري على كل لسان من هذه القصة هو أن الفتاة اليتيمة كانت تقيم مع أمها في حوش بضواحي القرية . وكانت أمها من الغنيات ، حتى أن كل امرأة فقيرة تريد أن تتزين لحضور عرس من الاعراس كانت تقصدها لتستعير منها أنواع الحلي التي تحتاجها ، ثم تعيدها اليها عند الفراغ من الحفل . ويذكر صالح أن آخر مرة رأى فيها الفتاة كانت عندما أرسلته أمه الى نخلة ليطلب منها (تيغارا) لتتحلى به بمناسبة زفاف ابن عمه ، الذي لا يكبره الا بسنوات قليلة .

وكانت الفتاة عبير معروفة عند كل من رآها بجمالها غير العادي ، يضاف الى ذلك انها كانت لعوبا وكانت تحسن وضع الثياب الأنيقة . ولم تفد تلك الاحجبة التي كتبها لها الشيخ المرابط لدفع العيون عنها منذ كانت صغيرة . ولعل ذلك يفسر حجبها مبكرا على أعين الناس . ورغم احتجابها فقد تعلقت بها قلوب من كانوا رأوها من الشبان ، وحتى الفتيان أمثال صالح . وقد قال صالح لأحد اصدقائه ذات يوم ، وهو يتنهد ، ان اثر قدميها فوق الرمل يثير اشواقي اليها ، فما بالك لو رأيت وجهها الآن ! وكان كل شاب وفتى يمنى نفسه برؤيتها والحديث اليها ،

ولو من بعيد . وكان شبان ضاحية الجامع ، ومنهم صالح ، يغارون عليها ايضا من الآخرين ، لأنهم يعتبرونها ابنة حومتهم ورفيقة طفولتهم .

ولكن ما صعق آذان أهل القرية ومنهم صالح ، هو ما سمعوه من أن هذه الفتاة اليتيمة ، ابنة نخلة الغنية ، التي تسكن في ضاحية القرية قد أصبحت عشيقة للقايد . لقد اثارتهم هذه القصة واقعدتهم ! كان بعضهم حقا يتفكه بها ويتندر ، ولكن أغلبهم كانوا ساخطين ، وقد أحسوا من ذلك بجرح عميق . وكان صالح يعرف ذلك من حديث الناس ايام السوق وفي الطريق واثناء العمل في الحقول وحتى بين الأطفال في الجامع . كان بعضهم داخل نفسه يهدد القايد ويتوعده ، وبعضهم يكتم غضبه حتى لا يظهر عليه فيبوح بشيء ضد القايد سرعان ما يوصله له جواسيسه الكثيرون . وكان بعضهم يربطون بين اخلاق القايد واسياده الفرنسيين ويقولون لولا هؤلاء ما كان هذا القايد ليتجرأ على فعل ما فعل ، وبعضهم يقولون في انفسهم لو كانت هناك عدالة وأخلاق ما بقي هذا القايد أربع وعشرين ساعة في منصبه ، بل لما بقي على قيد الحياة .

ويذكر صالح ان هذه الأخبار قد مضى عليها الآن حوالي عام ، ولم يحدث شيء غير نقل نخلة ، أم الفتاة من الضاحية الى جناح بقصر القايد نفسه خوفا عليها من غضب الناس . كما يذكر أن أمهات القرية أصبحن يمنعن بناتهن البالغات وحتى اللائي قاربن البلوغ من الخروج خوفا عليهن من اعتداء رجال

القايد ، فيصبحن فضيحة على اهلهن ، كما أصبحت الفتاة عبير ، فضيحة على القرية بأسرها . ولذلك فان ما تناقلته الافواه هذه الأيام وجاء به الأطفال الى الجامع كان خبرا لا يكاد يصدق .

انه خبر لم يعد سرا على أحد الآن (ولكن كل واحد من أهل القرية كان يفسره بوجهة نظره .) وكيف يبقى هذا الخبر سرا اذا كان يتعلق بحياة القايد نفسه ؟ فأهل القرية جميعا أصبحوا يتحدثون عن ان ثلاثة أو اربعة من رجالها قد تقدموا من القايد وضربوه ضربا مبرحا حتى كادوا يقتلونه لولا ان كلبه العقور ، الذي كان لا يفارقه ، قد هاجمهم حتى أيقظ أهل الزقاق الذي وقع فيه ضرب القايد ، عما كان يجري ، فاختفى الرجال بسرعة . لقد وقع الحادث في ظلام الليل في زقاق غير بعيد من قصر القايد عندما كان عائدا من السهرة . لقد أعلن له ضاربوه انهم فعلوا به ذلك انتقاما لشرف القرية التي اعتدى عليها بخطف الفتاة واجبارها على ان تكون خليلة له . واخبروه ايضا ان أهل القرية جميعا ناقمون عليه من أجل ذلك .

وعندما استيقظت القرية في الصباح شاع الخبر عما وقع للقايد وعن مجيء الشرطة الفرنسية وأعوانها لمعاينة مكان الحادث ومعرفة ما جرى بالضبط . وقد وجدوا دماء القايد تلطخ الحائط الذي تحامل عليه قبل سقوطه . وعرفوا انه كان سكران ثملا ، وانه لولا كلبه لما بقي من الأحياء . ولكن التحقيق أسفر عن أمور أخرى غريبة . فالذين ضربوا القايد كانوا من ندمائه الذين

يسهرون معه في ركن خاص من مقهى السوق ، وكانوا يعرفون عنه وعن تصرفاته وافكاره . وهو تارة يعتبرهم من اصدقائه واترابه الذين يلهو معهم ويسهر ، وتارة يعتبرهم من رعاياه الذين ينهرهم ويضربهم بل ويبصق في وجوههم . ولذلك اختلف الناس في تصديق الخبر وتكذيبه . فبعضهم اعتبر أولئك الرجال ابطالا انتقموا لشرف القرية فهم يستحقون التنويه والتبجيل والحماية ، لأنهم قد عرضوا انفسهم لأخطر العواقب لا من القايد فحسب بل من السلطات الاستعمارية التي اعتبرت نفسها هي المعنية بالاهانة والاعتداء ، لأن القايد يمثلها ويمثل شرفها وجبروتها .

ولكن بعض الناس نظر الى أولئك الرجال على انهم ندماء القايد وانهم ، بالتالي ، شركاء له ، وانهم جميعا كانوا من التجار والأعيان ، بل ان بعض الناس ذهب الى اتهامهم بمشاركته في الفتاة نفسها ، وان سبب التعرض له بالضرب انما كان غيرة منه لأنه استأثر بها دونهم وأخفاها عن عبثهم ليتفرغ لها وحده ، وزاد فأخفى امها عنده حتى لا يبقى لهم مجال في الاتصال بالفتاة . وذهب تحقيق الشرطة الى تأكيد ظن هؤلاء الناس . فقد ثبت ان أولئك الرجال كانوا تلك الليلة قد لعبوا القمار مع القايد وتناولوا معه الخمر ، وتكلموا في موضوعات خاصة احتد لها النقاش وارتفعت الأصوات . ولكن ذلك كان قبل غلق المقهى وانصراف السمار الى بيوتهم .

غير ان ما وصل الى آذان الناس لا يحتوي على هذه التفاصيل . فصالح ومن معه من الأطفال وأهل الضواحي لم

يسمعوا سوى عن حادث الضرب وانقاذ الكلب لسيده ، ومجيء السلطات الفرنسية من المركز القريب للتحقيق في الحادث . وهذا يكفي لهز القرية الآمنة التي لا يعرف اهلها سوى العمل الشاق نهارا والنوم المبكر ليلا . بل ان ما اثارهم حقا هو ان ما يجري هذه الايام يهمهم بالدرجة الأولى : الفتاة اليتيمة وامها ، وعبث القايد وضربه ، وهروب الذين ضربوه من القرية الى المدن البعيدة ، بل ان احدهم قد توجه الى تونس في تلك الليلة .

وبدأ أهل أولئك الرجال وانصارهم من السياسيين والتجار في التحرك . فحررت لصالحهم البرقيات والعرائض الى السلطات الفرنسية تستنكر اعمال القايد وجبروته وتسلطه على أهل القرية ، غير مكتفين بحادث الفتاة ، وانما جمعوا ملفا كاملا عن ظلم القايد لهم في جميع مجالات الحياة من فتح الخمارات وقبول الرشوة والتشجيع عليها ، ومضاعفة الضرائب والعبث بأموال الناس واستغلال توزيع أوراق المؤونة اثناء الحرب العالمية الثانية ، وحصر السلطات في أهله هو ، واخيرا الاعتداء على بنات القرية واشاعة الفساد . وجمع المتحمسون مئات التوقيعات من الفلاحين والتجار والاعيان ، وأعلنوا انهم يؤلفون جبهة واحدة للوقوف وراء الذين ضربوا القايد ، لأنهم انما فعلوا ذلك دفاعا عن عرض القرية ودفاعا عن أنفسهم . وطالبوا بعزل القايد ومعاقبته على مظالمه . وقد اغتنم بعضهم هذه الفرصة واعلن عن انشاء نقابة سماها نقابة المضطهدين .

ولكن صالح لا يدرك ابعاد كل هذا . ان الذي يهمه هو

مصير الفتاة ومصير هذا الوحش الذي اعتدى عليها وسلبه من رؤيتها ولو بصورة خاطفة .. ولو في الاحلام .. بريئة وجميلة وطاهرة .. لا ملطخة بعار المهانة في ذلك القصر الموحش . وكم تمنى ان لو كان هو البطل الذي ضرب القايد حتى الموت واختطف منه الفتاة واعادها الى حضن بيتها الدافيء المليء بصور الطفولة .. والذكريات ، ولكنه واسفاه ، ما يزال في هذا الجامع يحفظ القرآن ويعاون الشيخ المؤدب على تحفيظ الصبيان ، ويستعيد أخبار السوق وما يجري في الاحواش بين الكبار .

وفجأة علا صياح الأطفال من جديد ، فقد جفت الألواح وانتهت حصة اللعب ، وأخذ الأطفال يتجمعون حول الشيخ المؤدب في حلقة كبيرة وفي يد كل منهم قلم من القصب ، ولوح يمسحه بيده والى جانبه دواة مفتوحة ، وهو يستعد للكتابة . وقبل ان يجلس صالح في طرف الحلقة لمساعدة الشيخ المؤدب قال لصديقه عمار الذي كان قريبا منه سنا : عند انصرافنا الى الأحواش ، سأروي لك أغرب ما سمعت البارحة من تطورات حول قصة القايد وعبير .

مدينة الجزائر ، 1983/11/30

(*) ـــ نشرت في مجلة (الكاتب العربي) ، ـــ سورية ـــ عدد 8 ، سنة 1984 .

سعفـــة خضـــراء

تمهيـد : يكاد الأدب الجزائري يكون خاليا من عنصر القصة التي اصبحت مادة اولى لمفاهيم الآداب العالمية الحديثة .. مما جعل الباحثين في انتاجنا ، لا يظفرون بالطبيعة الاجتماعية التي تعيشها الأمة . وتمثلها فيما تبديه من نتائج : عقلية ونفسية وذاتية وانسانية . وذلك الخلو البالغ هو الذي دفعني الى ان (أحاول فقط) موضوع القصة ، وان ابرز فيه معالم من حياتنا الاجتماعية ظلت منسية وان اتعرض لتحليل نفسيات الأشخاص (خصوصا بطل القصة) وان أصور للقارىء بعض الحوادث الجارية بيننا في كل حين وفي كل مكان ، وقد اهتممت بالعنصر النفسي أكثر من غيره من

(*) مهداة الى الأستاذ الكبير أحمد توفيق المدني ، والى جميع الساهرين على مصير النهضة الثقافية من رجالات جمعية العلماء العظيمة .

الاجواء نظرا لطبيعة الشخصية التي تمثل القصة أو تتمثل فيها ..
ورائدي في كل ذلك ، خدمة أدبنا الحديث ليتمكن من مواكبة
النهضات العربية في مختلف الاقطار ..)

ليس في هذا الوجود ما يشعره بالتفاؤل أو
ينسيه ـ لحظة ـ عالمه الغريب ، ان دقات قلبه لتحدثه بجديد
غامض يعمل تحت تأثيره من غير ان يدرك مصدره وروحه
وهدفه ، حتى ليوهمك ـ أحيانا ـ انه يعيش تجربة نفسية قلقة
قذفته في ظلمة عارمة من الحيرة والوجوم . وكان ما يمكن ان
يعرف عن نفسه الساعة ، انه يستظل بمكان لم يتصل باقانيم
الحياة الا عن طريق الاساطير وان حياته العلمية فيه ظلت
محوطة بتعاريج متشعبة مبهمة ليست بذات حياة ولا أهداف
سوى اضواء باهتة قد تبلور الاحاسيس وتحث على انتظام
الخطى .. وانه انهى زمنه الدراسي بمنأى عن العالم والناس ،
فلا صحافة ولا أخدان ولا مطالعات موجهة . لقد فارق
وسطه الرتيب الذي لا يؤمن الا بالسلام والطقوس الدينية ،
والخضوع لفروض التقاليد الى وسط يتمرد على الأوضاع
ومقتضيات العرف ، ويعشق الضجيج واللهو ، ويتغنى بملاذ
المدينة وزخارفها وحرياتها ، فلم تستجب نفسه لطلبات
الوسط الجديد ، ولم تتجاوب عاطفته مع نغماته وصخبه ،
ومع ذلك فانه لم يقنط من النجاح النهائي ، ولم تستسلم ارادته
لجاذبية المحيط القوية حتى ظفر بحلمه اللذيذ وزهرة خياله
الجميلة . وقد كان المتوقع منه ان يطير فرحا ، وان تنطلق من

حنجرته صرخات البشرى ولكنه اكتفى بالابراق ــ فقط ــ الى أهله بعلمهم بفوزه الاخير في الشهادة ووصوله اليهم بعد يومين .

وأخذ (جمال) يستروح نسيم الحياة وهو يحزم حقائبه للسفر ، فيكاد يختنق بانفاسه الحرى المتصاعدة دون انتظام ويتمتم فلا يبين ، ويترنح وليس هو بالثمل السكران وكانت اللحظات تمر عليه وكأنها تثقله بأمانات سرية يحس منها خطر ا عظيما ، وليس في (مفكرته) سوى خطوط رمزية لهذه الفترات الجديدة التي خدرت جهازه النفسي وما كان صديقه الذي جاء لتوديعه ليغيب عنه ــ وهو الذكي اللبق ــ ما فيه جمال من اضطراب ليس بالمألوف فبدا له ان يستدرجه لمراده ــ وهما في الطريق ــ فقال : ارى ان القيظ يشتد كلما طلع النهار ، أنظر ألا ترى سياط اللهيب التي ترسلها الشمس على الأرض في حنق وانتقام . انها تصدع هذا الاديم الضبابي فتبخره تبخيرا .

قال جمال بمرارة مكبوتة بعد ان أرسل زفرة طويلة في الفضاء الفسيح : وماذا عسى ان نقاوم ازاء هذه القوة الزمنية الجبارة التي لا ترحم . ان في دماغ كل بشر بركانا يهدده دائما بالانفجار القاتل وليست قوته بأخف وطأة من مفعول الشمس في الأرض او في نفسها كما ترى .. اننا أبدا ــ لجهلنا ــ نتقى ذلك البركان بأسلحة واهية لا تطفي حرارة ، ولا تهدي مضطربا كالفضيلة والصبر ، وشكليات مموهة من

طبيعة الاخلاق وغريزة المثل العليا . وقد لا نتمكن من ذلك فيردينا في هوة عميقة من الخيبة : هوة الانتحار الشنيع . فقال الصديق وقد لاح له شيء مما لاحظه منذ حين : أريد ان أقول : ان هذه الحرارة المستعرة التي وقفت كل شيء عن الحركة ، هي بذاتها قد توقف طاقة الفكر وتعطل سير الارادة ، وفي ذلك الخسران المبين . وكانا يدنوان شيئا فشيئا من المحطة فاسرعا الخطى حين وقع في آذانهما صفير القطار وقد زاده السكون انطلاقا وصدى ، بينما راح الصديق يتابع كلامه : ولكن ما دامت الانسانية تؤمن بالفشل الذريع فليس هناك ما يصرفها عن احترام التفاؤل ، والبحث عن مهنة متواضعة في الحياة . ان اليأس قد يجعل منها وحوشا منتقمة تفتك من حيث لا تريد .

وكان الصديق ينهي جملته الاخيرة في القطار حيث أخذ جمال مقعده ضاغطا على ركبتيه في الم وحسرة يخفيهما عن صديقه الذي التفت اليه معقبا على كلامه السابق قائلا : لم اسألك عن اغراض الرسالة القومية التي ستنهض بها وآرائك الاجتماعية الحرة التي ستدعو اليها في وطنك بعد ان كللت بذلك النجاح العظيم . وعلى كل حال فالوقت قصير والبريد بيننا . وأرجو ان لا تبخل علي بما يذكرني بشخصك ، ويجعلني على اتصال دائم بأخبارك أما الآن فالوداع يا صديقي جمال ، وعانقه في حرارة وعطف . ثم نزل وفي عينيه بريق من دموع الشفقة على صديقه الحزين وقد ود مخلصا لو عرف

الاجواء التي اثارت آلامه ، واطلع على كامل علته . ولكن هيهات ...

وكان القطار يزداد سرعة كلما اوغل في الابعاد تحت سراب الفضاء الغائم بالحرارة فيطوى الارض والجبال والمنعرجات في لمحة خاطفة كأنه سهم نافذ الى هدف أو صاروخ يشق أجواء السماء . وطفق السفر (1) يستروح نسمات الجمال من خلال الزجاج . ويتمتع بالوان الطبيعة المتجددة . وكانت الغابات الكثيفة ، والمغاوير الموحشة ، والجبال الخرساء تعيد صور الحياة البدائية : حياة الانسان الفطري بين أحضان الطبيعة وجلال الصحراء . وكانت الجداول المنسابة في هدوء وبين الخمائل والأزاهير تبدو وتختفي كأنها تستحي من شفاه الاشعة الدافقة بالحرارة ان تلامس وجنتها المسحورة برعشات الجمال .

ولم يكن (جمال) بالملهم السعيد لتلهيه تلك المناظر عن جوه النفسى الخانق رغم شغفه بالطبيعة التي ترعرع فيها وشب ، بل كان دائم التفكير متصل الكآبة ، وقد يطغى عليه ذلك الشعور الغريب فينتفض بلا وعي ثم يرتمي فوق مقعده مخفيا وجهه بكلتا يديه ، وقد يرتج عليه بأوهامه وخيالاته بحركات لاشعورية ذهابا وإيابا .. ترى أي شيء دافع لتلك الاوهام والخيالات ؟ قد يكون اتجاها غراميا مكبوتا ، قد يكون مشكلة نفسية معقدة ، وقد يكون مرضا عصبيا خطيرا ،

(1) أي المسافرين

وقد يكون غير ذلك ولكن وجهة واحدة لا يمكن الاحتمال فيها مهما كان لونها وهي أن (جمالا) يصعد الآن ربوة جديدة من ربوات الحياة ، لدى حدود التفكير والايهام . انه شاب فارع وسيم في منتصف العقد الثالث من ربيعه الجميل . وقد تبرجت له الحياة بزينتها ومفاتنها تغرية بالاحلام والظنون ...

وهل بعيد أن يستحيل الغدير الضحل جدولا رقراقا ينساب عبر الاعشاب ؟ وهل قبيح ان تخضر المروج بعد إمحال وعبوس ؟ انه ليس بين الشباب والسعادة سوى التجاوب مع نسائم الصبابة وهتاف العواطف . وليس بين جمال و(الحياة الجديدة) سوى هذه المسافة الدانية . ثم ينتهي الى التراب الحبيب الذي فارقه منذ زمن ..

هذه قرية (قمار) غارقة في رمال بيضاء ناصعة يزيدها وهج الظهيرة لألاء ، فيخيل اليك ــ وقد التفت من حولها غابات النخيل ــ انها زورق مشحون يمخر العباب ، ويتهادى ثملا برفيف النسيم . وكانت ظلال النخيل السامق الفروع تنبسط على الاديم المتوهج فتلطف من لفحات القيظ الغضوب . وكانت السماء مجلوة الصفحة ، مفضضة الجنبات بضباب مائي اللون يتصاعد كدخان الجحيم .. والاهالي يكدحون ضاربين في مناكب الارض غير مبالين بالتعب ينهك قواهم . ولا مهتمين باجسادهم المعراة للشمس ، وبين حين وحين تتهامس في الاجواء نغمات فطرية مفعمة بالتطريب فتنعش السامعين ، وتبعث فيهم نشوة روحية تحبب اليهم الجهاد الوديع

في سبيل العيش الهنيء .. وكانت أسرة جمال تعيش في دعة ورضى ، محترمة الجوار . مرموقة بالاعتبار والتعظيم .. ولما انتهت اليها البرقية ، فاضت لديها دواعي الفرح وغمرتها اضواء السرور .. وشرعت تعد مرافق الحفلة المشتهاة برهانا للناس واعلانا للبشرى ...

فهذه الام العليلة قد فارقها السقم وراحت بخفة وحرارة تفكر في (تحفة) رائعة تزفها لابنها العزيز بعد أن من الله عليه واصبح من العلماء .. وكان أول شيء دار بخلدها ، ان توفر له كمية كبيرة من الدراهم لكى يقتني بها كتبا تحفل بها خزانته البلورية الجميلة .. الم يصبح جمال عالما وأهل القرية لابد انهم سيتقاطرون عليه يستفتونه في مشاكلهم ؟

لكن عبثا تحاول الأم تركيز هذه الفكرة ، على الحاحها .. فان هناك بارقة جديدة انقدحت في ذهنها فجأة ، فحولت مجرى تفكيرها في سرعة الاثير .. ذلك انها تعلم ان ابنها شاب في ريعان الفتوة . وان احظى فتاة في القرية ستكون من نصيبه ، وان لداته كلهم قد سعدوا بزواجهم الباكر وان كانوا لا يربون عنه ثقافة وحظوة .. ولا شك ان مشاكل الشباب كلها نتيجة لعدم التوفيق في اختيار شريكة احلامهم .

وهكذا ارتسمت هذه الفكرة الحيوية في ذهن الأم ، فطفقت تستعرض صور الماضى .. ألم تراوده عن الزواج منذ سنين فرفض ووعدها بانه سيلبي رغبتها حينما ينهي دراسته ،

ويؤسس مستقبله ، اذن . ماالذي يمنعها الآن ــ وقد اتم جمال ما أراد ــ ان تبحث له عن امنيته اللذيذة . والشريكة السعيدة .. وما دامت تؤمن بان ذلك يحفظ نظام الاسرة ، ويصون ابنها عن كلام الناس ــ فهو اروع هدية تقدمها لجمال برهانا على الامومة الصادقة ، والعاطفة الحنون .. ثم ذهبت تحاول بحيوية الشباب ، ولن تعدم المرأة شيطانا عبقريا ..

اما الاب فقد أخذ عليه الفرح أحاسيسه واعصابه وشعر بحرارة الدم الفتيّ تلتهب من جديد ، فذهب من فوره ليبلغ الى شيوخ القرية ووجهائها الدعوات ليحضروا الليلة السعيدة التي نثرت فيها الاماني والقلوب .. وريش فيها الجناح الذي طالما دلف على وجه الاديم ، وردد الحان الخمائل السكرى .. ولم يكن الأب يعبر عن احلامه وسروره الا بعينيه وقلبه وحركاته اللاشعورية .. ولما رجع الى المنزل قابلته امرأته بوجه تنطلق البشائر من أسرته ، وهمست نحوه في نشوة بادية ، بانها وجدت الجوهرة المكنونة التي سيهفو لها قلب جمال حبا ، ويسعد البيت باشراقها وجمالها . انها (نرجس) الحيية الطاهرة التي فتقت أكمام خمس عشرة وردة من ربيعها الحالم الندى . فانشرح صدر الاب للصفقة الرابحة ، والطمأنينة الآتية مع الايام التي ستوطىء للاسرة اكناف النعيم ، وتمهد الطريق لتحقيق الاماني العذاب ..

ومرت دقائق سعيدة استعرض فيها الأب مشاكل الاسرة والبرامج التي اعدها لضمان سعادتها ، والحرفة الشريفة التي سينهض بها جمال وهي (التدريس بالجامع الكبير) ، وبعث القرية

من سباتها .. وكانت تلك الدقائق تزداد سعادة وأنسا كلما طلع النهار ، حتى علت في الفضاء طلقه بارود قوية ، وزغاريد تتصادى في السماء ، انه جمال ـــ ولا شك ـــ لقد كان يمشى مشية يحسبها عارفوه وأهله من دلائل الهيبة والوقار وليس ذلك ـــ في الواقع النفسى ـــ بشيء مما يحسون . واستقبل جمال ذويه وأصدقاءه في حرارة ـــ قد تكون نتيجة الافتعال ـــ تنم على حبه لهم وحفظه لجميلهم ...

ولقد كثر التهامس من العامة ـــ الفضوليين في كل شيء ـــ حتى قال بعضهم بصوت خافت وهو ينظر الى السماء : الحمد لله الذي رزقنا عالما سيخرجنا من الظلمات الى النور بعد ان منعت الحكومة ابناءنا من التعليم العربي وحجرت علينا فتح المدارس الحرة واجبرتنا على تعليمهم في مدارسها الخاصة .

وقال آخر في صوت مثله : لعله يساعدنا فنتغلب على الحكومة قانونيا ونبني لانفسنا مدارس مستقلة .

وقال شاب مَرِيدٌ : احسب ان (جمال) لا يشغل نفسه بمشاكلنا الا بعد الزواج لانه كالشاب المتمدن من ابناء القرن العشرين ، فابتدره احد بقوله : ولكن العلماء بمعزل عن شجون العواطف ، وما دامت رسالتهم انسانية لا شخصية فلا بد انهم يعيشون لغيرهم اغنياء عن لذائذ الدنيا ومتاع الشياطين .

ثم انتهت السهرة السعيدة تحت اضواء القمر المؤنسة وانفض السمار وعشاق الليالي وجميعهم يتوسم في جمال

خصائص الرجل المرشد الذي سيخرجهم من الظلمات الى النور الا ذلك الشاب اللعين .

على ان الام لم تفجأ جمالا بالهدية ولم تحدثه عنها الا بالاشارات لما رأته من سمات التعب عليه وتوتر الاعصاب بل اكتفت من كل ذلك بقولها : أرجو ان أراك سعيدا مع من تحب ياعزيز قلبي اما الآن فنم نومة عميقة هادئة على هذه التربة الطرية ، والى الصباح السعيد .

استلقى جمال على نضائد الرمل الحريرية وقد رنت في اذنه كلمة أمّه الاخيرة بنغم مسحور واسلمه شعوره لنقدر يوجهه حيث شاء واسفرت له النجوم والقمر عن ضوء دافق بالحرارة فياض بالذكريات . فاطلق جمال خياله يسبح وراء الوهم ويطوف بعالم الترهات والاساطير .. ان الحاحه في التماس النوم غير مجد لدى ما يؤرقه من آلام نفسية ، ولقد تمطى به الليل حتى اثقله وسواسا وهما اضافهما الى تعبه واضطرابه وبات ينتظر الصبح وضجيج الأطفال وهو يهذي بهذه الأسئلة : ماذا تريد أمي من قولها : أرجو أن أراك سعيدا بمن تحب ، وهل أنا عاشق ، ابدا .. أبدا . وما عساي أن أقول لها غدا ان كاشفتني في شأن الزواج ...

هل أغيظها بعنتى ؟ إنها ستتألم من ذلك . لا . لن اغيظها بل اترضاها وامنيها . ولكن كيف ؟ ان أمي تنظر الى قريب فقط ولا تنفذ الى أصول المشاكل والقضايا .. اني غير ناس الزواج ولكنني فقير من سلاحه . يجب ان أعد نفسي

وأعالجها . يجب ان أمهد الطريق وأخرج من دائرتي الضيقة لأواجه الحياة ، اني لم انتفع بتجاربي ومعلوماتي حتى الآن . ولكن أتراني مريضا احتاج الى علاج سريع ؟ لست أدري .

ولما تنفس الصبح في فتور واشاع نسمات الشباب الجديد في الاعماق المتناهية ــ جاءت الأم حاملة ابريق القهوة الى جمال وهي تثرثر في نهم يزيده انطلاقها وضوحا : منذ زمان وفكري مشغول بناحية خطيرة من حياتك ولما سمعت بنجاحك تأكد لدي انه لا بد من تنفيذ ما شغلني حتى كاد ينسيني لذة الحياة . انت يا جمال تعلم ان الأم لا تبغي سوى سعادة ابنها سعادة ابدية لذيذة تقصيه عن عالم الانسان الظالم واشباح البؤس المطاردة .. ولكنك ــ يابني ــ لا تعلم أي هدية أعددتها لك لضمان سعادتك ، وستزف لك قريبا . قالت هذا وهي تلاحظ انها ترقم على الماء وان كلامها لم يحرك مشاعر جمال حتى يبرهن لها على رضاه بالبشر والارتياح بل انه أجابها في هدوء بعيد وبرود متناه : أي هدية تعنين يا أماه ؟ لعلك تريدين هدية مثل حلويات البارحة التي تناولها الأطفال ، اني لست في حاجة اليها ولا الى مثلها لأني لم اشتق يوما الى تناولها .

ــ اتحسبني امزح معك يا جمال، كن متيقنا بان هديتي اغلى بكثير مما كنت تقول ، أغلى من الذهب والحلويات بل حتى من الأرواح .. انها (نرجس) تلك الريحانة العطرة والملاك الشادي بتسابيح الجمال ...

ــ الآن فهمت مرادك وتبينت حنانك وعطفك ، ولكن اعوذ بالله من ان احتضن النرجس وبين جنبي قلب يضطرم كالبركان . ان النرجس غض جميل لا يحتمل دغدغة النسيم يا أماه . وحولي كلها عواصف وأعاصير . أنا لست مجنونا ولا مخبولا ولكني احتاج الى مكث طويل في مستشفى المجاذيب لانظر الى الحياة نظرة عميقة كاشفة .. انني ابغض الناس جميعا ولكني اريد ان ادرسهم على ضوء بغضي لهم .. تريدين مزجى بمن أكره ، أن أكون معه عنصرا ثانيا ..

وهنا عرفت الأم الذكية ان (جمالا) يداورها ويصطنع رضاها لا غير وانه ما يبرح مصرا على عدم الاقتران بالمرأة التي تحب وانه يوهمها بلغة غامضة تشبه فلسفة المجانين وان هذه المظاهر منه تدل بوضوح على تشاؤمه ويأسه ولكن ما الحيلة لبعث الامل في نفسه وشفائه من تلك الادواء المزمنة .

وكانت الاقدار تهيء الظروف المواتية فاتفق للأم أن تحضر عرسا لجارتها . واجتمعت فيه بعشرات النسوة اللائي كن يشققن الحديث ويدخلن السرور فتكلمت احداهن عن السيدة (الولية) ــ كما كن يطلقن عليها ــ وكيف تغيب عن الوجود وتشفى المصابين بامراض معضلة ونشطت الام لهذا الحديث الهام واعارته جميع ما تملك من مواهب حتى احاطت بجميع المعلومات عن تلك (الولية) المحترمة ذات الشأن العظيم والحظوة الخطيرة لدى الانس والجان .

وقد عرفت انها تحفظ جانبا من القرآن الكريم وتحسن الاحاديث والامثال وعندها كثير من اساطير الاولين واخبار الجن وانها معجزة في فنون الرقية وان كثيرا من الناس نجا على يديها من الموت المحقق ، فوطدت العزم على ان تذهب اليها وتستنجد بها وتتوسل اليها بكل ولي وشريف وعزيز وغال .

وفي صباح اليوم المقابل كانت العجوز الشمطاء أو (الولية) الصالحة بجانب سرير جمال وهو في شبه سكر غريب أو ذهول صوفي وقد تصاعدت من حولها انواع البخورات وبين يديها جمال تقلبه وهو في استسلام الموت جاحظ العينين وكانت المجامير تحترق باصناف العيدان والمعادن ثم طوقت رقبته «بسعفة خضراء» وقالت له وهي تحكم عقدها : حذار أن تحاول انتزاعها قبل ان تيبس والا غضب عليك (الشقعقول) و (الهبهب) واستعصى شفاؤك . ثم التفتت الى الأم وهي منصرفة كالخيال المهيب وقالت بصوت غليظ : عندما تيبس تلك السعفة على عنقه أعرضي عليه ما تشائين فانه لا يستطيع ان يعصى لك أمرا أو يفر من شرك الحكمة .

* * *

وفي أمسية جميلة لشهر أكتوبر من سنة 1946 ، وبعد سبعة اعوام من الواقعة كان جمال يتنزه في حقول النخيل ومعه طفلان

يخيل للناظر انهما ملكان هبطا من السماء وليسا بابني جمال ، فهل كانت الايام تحلم او كان جمال في يقظة الحياة ؟.

نشرت في البصائر (على ثلاث حلقات) .

272 (21 ماي 1954 ،

273 (28 ماي 1954)

274 (11 جوان 1954)

وقد أضيف بعد اسمي فيها أنني من «رابطة القلم الجديد» وكنت قد بعثت بها الى البصائر وأنا طالب في تونس .

مـــرارة التبـــغ

بعد أن قطعا مسافة كيلوميترين ، طيرت الريح أنفاس (احمد) من تحت الكومة الضخمة التي تثقل ظهره المنحني :

ــ أظننا قد أصبحنا في مأمن يا ..

وحاولت أنفاسه أن تفح بحروف جديدة ، ولكنها توقفت فجأة كأنما اختنقت . فقد زعقت الريح زعقة اكبت وجه أحمد على التراب ، وكدست على رأسه تلك الكومة المثبتة في كتفيه ، وحول عنقه بحبال .. ولكنه استطاع ان يغالب الريح العاوية المجنونة ويستوى في مكانه ، واضعا كلتا يديه على وجهه تجنبا لحبات الرمل التي كانت تنهال على الأجزاء المكشوفة من جسده . ومن خلال أصابعه الخشنة اليابسة استطاع ان يخوض بعينيه لعله يرى شيئا ، ثم لفظ صوتا أبح تلقفته الريح قبل ان

يحدث صدى . فقد دخل التراب في اذنيه وفمه وعينيه وحتى في طيات شعره وثنايا قميصه الوحيد المرقع . وبعد وقفة عمياء عربيدة ولى ظهره للتيار وراح يفرك عينيه محاولا ان يرى شيئا امامه ..

كان القمر يطل في فترات من السحب البيضاء المتراكمة .. انه يشق طريقه بعنف ، لا يبالي بالريح ولا بالظلام . انه كان يركض متحديا كل شيء ، مقاوما كل شيء في طريقه ، ولعله سيقاوم مثل احمد ، الى النهاية .

أما أحمد فقد توقف . اتراه عاجزا عن مواصلة المشي ضد التيار . ان الاستسلام للريح سيجعله شيئا تافها . كيف يستسلم الى عدوه ؟ مستحيل ! مستحيل ! ان هناك لحظات حاسمة في حياة كل كائن تجعله يعجز عن الاختيار ، او تجبره على فعل شيء لا يرضى عنه . ان مثل هذا الاختيار ليس دائما في صالحه ومع ذلك لا بد له منه .

وسأل أحمد نفسه بعنف : وهل استسلمت ؟ ولكن الجواب كان سريعا : لا ، لا . انني امضي ، انني أكافح الريح وحبات الرمال القوية . ولا بد لي من مواصلة المشي والكفاح ولو طال الطريق وازدادت حدة الريح وكثرت الحواجز امامي .

وعلى بعد أمتار منه استطاع ان يلمح كومة سوداء فصرخ لها بيأس .. ثم اندفع نحوها حتى كاد يسقط . وقبل ان يصلها سمع صوتا كأنه خارج من أعماق بئر قديمة :

ـ لن نزيد خطوة .. هنا يكفي .. ان هذا مكان خفي لا يمكن ان يهتدى اليه احد . هيا ، اسرع .. يجب ان نعود ما دامت الريح ثائرة .. فاذا هي لم تعف آثارنا فانهم سيكتشفوننا .. ستكون فضيحة ..

وساد الصمت بعض الوقت الا من صفير الريح ونهيق حمار على بعد .

ثم اندفع أحمد وصاحبه يحفران .. واثناء الحفر كان أحمد يردد كلمات تذهب الريح بمعظمها .. ولكن صاحبه استطاع ان يجمع من تلك الكلمات هذه الجمل :

ـ أرأيت الى هذه العيشة يا عبد الحميد .. عرق وخوف وعذاب .. ان هذا التبغ نسقيه عرقنا في الصيف رغم الجفاف والقيظ الشديد .. ونتعهده رغم الشمس التي لا ترحم وجوهنا ولا اقدامنا .. اتذكر ابني سعيد الذي مات من ضربة الشمس .. وقد كدت انا ان أموت عندما لدغتني العقرب في الصيف الماضي فقط . آه ، كم هي الطريق بعيدة بين السكن والمزرعة ! لقد اشرفنا فيها على الهلاك عدة مرات من العطش . اننا من أجل هذا التبغ اللعين نترك اطفالنا ونساءنا بعيدين عنا حوالي اربعة أشهر في السنة .. نأكل التمر الحامض القديم اذا وجدناه والشعير الذي نتقاسمه مع الحمير . انني لا اذكر كم من الديون التي تراكمت علي هذا العام .. لقد تكاثرت حتى لم اعد اذكر المبلغ .. آه لو كنت أعرف الحساب مثل ذلك المعمر الذي يجلس على الكرسي يوم نذهب للاقتراض منه .

كم ندفع من أجل هذه الشجرة الملعونة ، صحتنا ، راحتنا ، سعادتنا . ومع ذلك فالأرض ليست لنا ، اننا أجراء عليها فقط . اننا لا نملك شيئا ، انهم يسموننا خماسة ، ولكن الخمس الموعود لا طمع فيه لاننا ادمجناه في الديون السابقة . ان بعضهم اخترع لنا اسما جديدا ، هو عمال الارض . ولكن ما الفرق ، خماسة أو عمال الارض .. المهم اننا لا نملك شيئا ، ان العبرة ليست بالاسماء ، اطفالنا ونساؤنا ينتظرون منا المأكل والملبس وليس اسماء جديدة . وما المانع ان يعيش الانسان سعيدا بدون اسم ، غفلا من كل المميزات .. ان امثالنا يعملون في شمال البلاد عند المعمرين في حقول العنب وغيرها بينما نحن في الصحراء في حقول التبغ والنخل . اننا سواء هنا وهناك ، لا يوجد بيننا الا الحرمان والأمل .. لا فرق ، فقط هناك الهواء معتدل وهنا حار ...

وشعر عبد الحميد بالحاجة الى التعقيب فقاطعه قائلا : والتمر ؟ انسيت مصروفاته الكثيرة الباهضة ، ومع ذلك فانه حين يأتي وقت الحصاد تأخذ الحكومة كل شيء ، ولا تبقى الا على ما لا يباع في اسواق فرنسا ، وما لا ترضى عنه شركاتها الكبرى .. لقد كتب لنا ابن اختي مرة من فرنسا يقول : «ان الفرنسيين هنا يسمون الجزائر ارض الرزق .. ويسموننا نحن عرب الجزائر : الآلات القديمة الضرورية .» نعم ، اننا في نظرهم مجرد آلات قديمة . ولكننا في نفس الوقت ضرورة لضمان حياتهم الناعمة . ألسنا نعمل طول النهار وثلث الليل بدون توقف ؟ حتى الآلات تحفى وتتآكل .. ألسنا ننتج لغيرنا ولا ننتج شيئا

لأنفسنا ؟ أليس ذلك هو دور الآلة ؟ وماذا يكلفهم تحريك هذه الآلات ؟ سياط لظهورنا وبصقات على وجوهنا المغبرة وركلات وكلمات نابية .. هذا كل ما في الأمر .. انها جهود بخسة ..

وغرق لهاث الرجلين في صمت عميق كأنما امتصه التراب الذي كانا يهيلانه على كومة الدخان ثم زفر أحمد بمرارة وهو يقول محاولا ربط ما سيقوله بما كان يقوله صاحبه . ومع ذلك فان هذه الحكومة تطاردنا بهؤلاء الكلاب الذين يستكثرون علينا حركاتنا ويعدون علينا انفاسنا وكأنهم يحصون علينا ذرات التراب التي تلتصق بأجسامنا ، ظنا منهم انها تذكرنا بعطر الارض التي انتزعوها منا غصبا .. لقد رحت اليوم الى سوق القرية فبعت بعض الخضروات بثمن بخس ، وكله ذهب في عشاء الأولاد هذه الليلة . ومن حسن الحظ انني التقيت هناك بمسعود تاجر الممنوعات فسألني اذا كان عندي شيء من (الكونترا) ان اخفيه عن الاعين لأن مفتشي الحكومة جاؤوا للبحث عن التبغ الذي قد يخفيه الفلاحون ليبيعوه بالطريقة السرية .. انك تعلم ، يا عبد الحميد ، ان فلاحي القرية ينظرون الى هؤلاء المفتشين كزبانية الجحيم .. فلو وجدوا شيئا عند احدنا من هذا التبغ الملعون لكان مصيره الاشغال الشاقة المؤبدة مع مصادرة كل ما عنده وتغريمه بما لا طاقة له به . لقد اجبرونا على امتهان زراعة التبغ . وقد جأرنا بالشكوى أكثر من مرة ، ولكن الى من ؟ النقابة ممنوعة . و «القايد» منهم . لا يفكر الا في مصالحه هو . والسلطة الاعلى لا تقبل الشكوى الا اذا مرت بالسلطة

الادنى . لقد بقيت شكاوانا بدون اجابة . لقد امتنع بعضنا ، مثل صالح ، من فلاحة هذه الشجرة فكان جزاؤه السجن مدة عام وغرامة مائة الف فرنك .

ثم جذب أحمد تنهيدة من اعماقه ، وقال : حقا ، لقد أصابوا ، اننا مجرد آلات قديمة ..

ونفض عبد الحميد يديه من التراب الذي لصق بهما اثناء الحفر والدفن وكأنه يخشى ان يتهم بالاعتداء على حقوق الدولة اذا بقيت بعض حبات التراب عالقة بجلده .. ومسح وجهه بكمه وشم يديه مخافة ان تبقى فيهما رائحة التبغ ، ثم تساءل :

ـ هل هناك من يعرف ان عندك شيئا من هذا التبغ ؟

ولم ينتظر الجواب من أحمد . فقد كان يعرفه حذرا الى اقصى حد . وبقدر ما تعنف كراهيته لهذا النظام وتكثر مناقشاته حوله ، بقدر ما يزداد منه حذرا . ولذلك تابع كلامه قائلا :

ـ ما اعتقد ان أحدا غيري قد عرف انك دفنت تبغك الممنوع في هذا المكان الحصين . ولكني أحب ان أسألك سؤالا طالما راودني كلما حل موسم الحصاد : لماذا تبقي على هذه الكمية من التبغ وتصر على اخفائها وتجلب الى نفسك كل هذا الخوف والعناء ؟ الا يكفي ما تقدمه الحكومة لكم ايها الفلاحون من ثمن الخمس . انك رجل معروف بالاقتصاد في كل

القرية . لقد سمعت ان الحكومة قد اشترت منكم أو بالاحرى عوضتكم باثمان لا بأس بها هذا العام .

كان أحمد يصغى الى صاحبه وعيناه الى القمر عبر الافق البعيد ، وكان القمر قد أخذ في الانحدار في صفاء وأشراق في أعقاب العاصفة الرملية الهوجاء .. فقد هدأت الريح وأصبحت نسيما رطبا نقيا يفيض على نصف الليل الأخير نعومة ونشوة . وكانت النجوم لامعة كأنها غاضبة على القمر ان يغيب عنها ويتركها وحيدة شاهدة على ما يجري في النصف الاخير من الليل . وبدا لأحمد انه انتصر أيضا على العاصفة وعلى العيون المترصدة . لقد دفن خوفه في التراب .. انه ترابه هو .. تراب جميع المواطنين .. والتراب لا يمكن ان يخون أصحابه الشرعيين .

لقد قاوم أحمد الحكومة منذ تم الحصاد ، بل منذ امتهن التبغ كأجير في أرضه على الرغم منه . ومنذ ساعات كان يقاوم الريح العاوية ، وما يزال عرق الانتصار عليها يبلل جبينه الأسمر الخشن ويبلل قميصه الابيض القديم . انه سيعود الآن الى بيته كهذا القمر الصافي المشرق المنتصر أيضا . فلو جاء أولئك المفتشون لما وجدوا اثرا يدلهم على التبغ المدفون ، ولقال بعضهم لبعض : ان أحمد فلاح جدى ولكنه ماكر يكره الفرنسيين .. اننا لا نثق فيه الّا بمقدار .. انه قادر على فعل اي شيء ضدنا . ان الأمانة عندهم هي ان يكرم صاحب الدار اللص الذي اعتدى عليه .. ويقدم اليه كأس البطولة !

ومن غير ان يلتفت احمد الى صاحبه ، قال :

ـــ لقد نجاك الله من هذه الشجرة المرة ، يا عبد الحميد . انك لو رأيت هؤلاء المفتشين الفرنسيين ببدلاتهم المضحكة ووجوههم الجامدة علينا وعيونهم الخضراء المطلة من نظارات الشمس وهم يلغطون ويلعنون .. يضربون منا من شاؤوا ويهينون من شاؤوا ويبعثرون اشياءنا ، بل انهم يقطعون كل شجرة يجدونها زائدة على العدد المقرر لكل فلاح ويرمون بها خارج الزرب في عنف وعنجهية . انك لو عرفت هذا لعذرتني في حذرى منهم واتقائي شرهم .. اننا ، ككل فلاح جزائري ، نكرههم كما لو كانوا خنازير .. اننا في موقفهم ذلك معنا نود ان لو كنا وحوشا تنقض عليهم بشراسة وتلتهمهم .. كما كانوا هم وحوشا ضدنا منذ مائة عام .

وكأنما حركت هذه الجملة ساكنا في عبد الحميد فقال معقبا :

ـــ وهل تظن انهم لا يكرهوننا ؟ اننا في نظرهم حيوانات مدربة ، ولكنها في نفس الوقت حيوانات تحمل معها ثورتها وخطرها ضدهم .. في اللحظة التي تبدو فيها طائعة منقادة .. ولذلك فهم يخافوننا ويكرهوننا ، تماما كما نخافهم ونكرههم .. والفرق بيننا وبينهم هو انهم يملكون القوة ونحن لا نملكها .. ولذلك ينهالون علينا أحيانا ضربا بالسياط بحجة اننا حيوانات ناقصة التدريب والترويض .. انك تعلم ما وقع لي ولابني .. فقد اخذوا ابني الى (الكوليش) ولقنوه شعارهم : انا فرنسي ..

أجدادنا هم الغول .. ولما رفض ان يقول ذلك ، ضربوه بوحشية .. ثم اخذوني انا الى السجن شهرا بتهمة انني علمت ابني «السياسة» ..

واقترب احمد وعبد الحميد من منزل الأول . وكان القمر قد غاب عن العيون ، وكانت اشباح وخيالات الجدران القصيرة البالية والنخيل الفارع تبدو ثقيلة وممتدة كظلال مقبرة هامدة . وكان السكون الراكد الحزين يملأ أحضان «قمار» ، البلدة الغارقة في رمال الصحراء . ولما مدّ احمد يده لتوديع رفيقه ، قال له مختصرا :

ـ اما الباقي فانت تعرفه .. ان صراعنا معهم لن يبقى على هذا النحو . انه لا بدّ آخذ شكلا آخر في يوم قريب جدا . ولعله سيكون صراعا اعنف واقسى مما سبقه من صراعات معهم .. انني احسّ يا عبد الحميد ان هذه الارض التي رفضت كل دخيل وضاقت بكل مغتصب لا يمكن أن تعامل هؤلاء الأغراب القساة الا بمثل ما عاملت به الاغراب الآخرين .. انك تلاحظ ان آثار القلق بهم والنقمة عليهم لم تهدأ يوما واحدا ، كما انها كثيرا ما اتخذت الثورة المنظمة الجامحة وسيلة لها ، منذ عهد الامير عبد القادر والمقراني .. ان السلطات الفرنسية قد احست بحرج موقفها معنا منذ مذبحة شهر مايو 1945 .. لقد عرفت ان الشعب يخفي حقدا عنيفا ضدها منذ ذلك الحين ، انه حقد مدمر يبحث عن طريقة جديدة للثأر .. لقد سمعت يوم السوق ان الفرنسيين عدلوا عن بعض مشاريعهم في الجزائر لأنهم يتوقعون

فيها عاصفة هوجاء .. ان مقتل أكثر من خمسة واربعين الفا خلال اسبوع واحد لن يمر بسلام .. لقد داس الفرنسيون على شرفنا وكرامتنا .. لن يمر ذلك بسلام .. هذا أكيد .

وضغط أحمد على مقبض الباب الخشبي القديم حتى لا يزعج صريره زوجته وأولاده الستة النائمين ، في غرفة ضيقة قصيرة الجدران عديمة النوافذ . وكان الوقت يقترب من الثانية صباحا حسب اشارات النجوم .. ان السكان هنا لا يعرفون الوقت الا بالشمس نهارا والنجوم ليلا ، خصوصا الثريا والقلب وبنات نعش .. لقد تعود الفلاحون ان يناموا اثر صلاة العشاء مباشرة .. فاذا مالت الثريا الى الجهة الغربية استيقظ الرجال والنساء والأطفال الذين تجاوزوا السابعة من السنين لأداء نفس العمل الرتيب المضني .. ذلك العمل الذي تفتحت عليه عيونهم ومارسوه بكل قواهم منذ الطفولة المبكرة .. وهو سقي شجرة الدخان ربيعا وصيفا ورفع الرمل عن النخيل خريفا وشتاء .

وقبل ان يغفو أحمد انحنى على ابنه الاكبر وتمتم بشهقة حبيسة قائلا : اللهم لا تجعل له نصيبا في هذه الشجرة المرة .. ثم قبله على جبينه الدافىء .. وأغفى . وقد استغرق في نوم طويل لذيذ ربما لم يعرفه طول حياته .. فقد تعود على الصحو مبكرا كبقية السكان ، ولكنه في هذه الليلة ، او في هذا الهزيع الاخير من الليل ، لم توقظه الا خيوط ذهبية ناعمة ارسلتها الشمس من خلال شقق الباب الكثيرة .. ولعه قد اطمأن الى ان ما عنده

من خطر قد لفه التراب . وشعر أنه سيبدو امام مفتشى السلطات الفرنسية شخصا مطيعا لا تحوم حوله الشبهات .

ولكن العقدة الوحيدة التي شغلت بال أحمد هذا الصباح هي : هل يحضر شخصيا لاستقبال هؤلاء المفتشين او يترك لهم الابواب مشرعة وينتقل هو بأهله الى حقل النخيل فيقضي يومه عاملا هناك بعيدا عن وجوههم . وكان يبدو انه لم ينته الى حل يقرر به على ضوئه مصيره القلق ..

وقفز الى ذهنه خاطر كالبرق : لماذا لا يتوجه الى السوق ليبحث مع اصدقائه عمن يشتري منه ذلك التبغ المدفون . ان ذلك التبغ هو ملكه الوحيد الذي يستطيع التصرف فيه .. ألم يسقه بنفسه حتى نضج ؟ ألم يحرم نفسه من الراحة لكي يجعله على ذلك النحو من القوة والنضج ؟ ألم تلفحه شمس يوليو وهو يسقيه ويتعهده ويجففه ؟ ألم يتحمل رائحته الكريهة القوية في داره خوفا عليه من الشمس والرياح ؟ اذن ، انه ملكه هو ، انه نتاج عرقه وتعبه وحرمانه . فلماذا يقيدونه عليه ويأخذونه منه بثمن بخس رغما عنه ؟ أليس ذلك لصوصية مقنعة ؟

وتذكر أحمد ان في السوق رجلا يقدره ويثق فيه ، وهو الشيخ علي ، الذي كان مذ انشأ مدرسة لتعليم العربية لصبيان البلدة .. وتذكر أيضا أن الشيخ علي مغضوب عليه ، لأن مدرسته اخذت تنافس (الكوليش) الفرنسي الى ان طالبت السلطات بغلقها .. بل انهم اتهموا الشيخ علي بالميول الوطنية

ومعاداة فرنسا .. وقال احمد لنفسه : الذي يعنيني ان الشيخ علي هو الذي اجتمعت عليه كلمة الناس على ان يكون امامهم في الصلاة .. انه موضع ثقة وكفى .. ان الفرنسيين جعلونا نشك ، في ثقة بعضنا البعض .. حتى أصبح من النادر ان تطمئن الى شخص كهذا الامام .. او الشاب مسعود الذي كان يجتمع حوله الشباب ليستمعوا الى حديثه عن السجن الذي كان فيه .. فقد اخذوه الى سجن الكدية بقسنطينة ، هو وآخرون ، لأنه القى خطبة ذات يوم هاجم فيها تزوير الانتخابات .. ان مسعود شاب ثائر ونصوح ، وقد يرشده الى طريقة ما ينجو بها من مصير السجن الذي تعرض اليه . وليس له اولاد وعائلة مثله .. اما هو فليس شابا مثل مسعود .. فلو كان مصيره السجن والاشغال الشاقة لضاعت عائلته واولاده .

ونادى أحمد زوجته وقال لها في صوت سريع فيه نبرات حادة : انت تعرفين ان هؤلاء الكلاب ليس لهم وقت معين فقد يأتون اليوم أو غدا ، وقد يأتون بعد أسبوع .. ولكن اذا جاؤوا في غيبتي فلا تقولي لهم عني سوى انه خرج ولم يعد .. هل فهمت ؟ ثم ودعها وخرج متوجها الى السوق ...

وفي المساء عاد الى منزله فتنحنح بصوت عال حتى تسمع الاسرة كلها بقدومه .. وأسرعت زوجته للقائه . وقبل ان تنطق بالعبارة المحفوظة «الله يعينك» ابتدرها بقوله ، وهو يشير الي ما في يده : اطبخي هذا اللحم وفرقي منه على الجيران ..

وكأنه نسي الوقت الذي ستطبخه فيه فقال لها متداركا بلهجة عالية : الليلة .. الليلة .. هل انت سامعة ؟

وكانت زوجته تصغي اليه في امتثال وذهول .. شأن نساء الفلاحين في هذه البلدة .. أما الاطفال فلم يكتموا فرحتهم بهذا اللحم الذي جاءهم من السماء فتصايحوا وصفقوا ورقصوا وتجاروا في كل مكان متصايحين . انهم لم يألفوا رؤية اللحم الا في العيدين ، عيد الفطر وعيد الاضحى ، وأحيانا يوم عاشوراء .. ولذلك سأل بعضهم البعض : هل هذه ليلة عيد .. وأي عيد من الاعياد المعروفة ؟..

وكان الجواب انها ليست ليلة عيد .. ان العيد تسبقه تحضيرات ووعود وانتظارات طويلة .. ولم يسبق اي شيء من ذلك هذه الليلة .

ووصلت ضجة أطفال احمد الى آذان الجيران .. فتهامسوا فيما بينهم ... قال احدهم : لا شك أن أحمد قد سدد ديونه . وقال آخر : لايبعد ان يكون ابنه الاكبر قد ختم القرآن .. وقال آخر : لعل امرأته قد انجبت له ولدا سابعا .

وقبل العشاء زار عبد الحميد صديقه احمد ليتحدث معه عن اخبار السوق واحوال الناس هناك . وليعرف منه سر هذه الضجة التي في منزله وسبب هذا اللحم الذي ملأت رائحته الطيبة انوف الجيران .. لقد تعود عبد الحميد على زيارة رفيقه والسمر معه في احاديث ذات شجون .. من اخبار السوق الى

احوال الفلاحة .. ومن تواريخ المسلمين الى غزو فرنسا للجزائر .. واذا ملّا من الحديث عن هذه الامور كانا يقضيان الوقت في قراءة القرآن .

على ان احمد لم يخض هذه الليلة في تلك الأحاديث مع رفيقه .. فاكتفيا بتكرير حزب واحد من القرآن .. لقد كان هناك ما يشغله ويعكر عليه راحته كلما حاول ان يغيب عن حاضره . ولذلك مال على عبد الحميد وقال له ، وهو بين اليأس والرجاء : ما رأيك ؟ في الأسبوع القادم سيتم كل شيء ان شاء الله .. وسكت احمد برهة .. ثم لاحظ علامة تعجب واستفسار على زميله فاضاف يقول :

ــ لقد اتفقت مع (العلوى) ، تاجر المهربات ، الذي تعرفه ، بين غدامس والوادي ،.. اتفقت معه على ان يدفع الف فرنك للكيلو الواحد .. انه ثمن لا بأس به ، أليس كذلك ؟

ــ سيمكنك على الاقل من تسديد ديونك .

ومرت الليالي الخمس الأولى ثقيلة كأن احمد كان يحمل على كتفيه كل هذه الرمال مجتمعة . واعتزم في الليلة السابعة ان يزور مقبرة مخاوفه .. واثناء العشاء تكلف الابتسام مع اولاده وكان يناديهم واحدا واحدا بأسمائهم ، كأنه يستعرض صفحة من حياته الماضية في كل منهم ، أو كأنه كان يتلذذ بحروف طالما لم ترددها شفتاه منذ سجلها كاتب المركز العسكري باللغة الفرنسية على بطاقة الميلاد .. ثم تركهم ينامون وقام فقطع المسافة التي

تفصل بين منزله ومدفن التبغ وكأنه كان يهتدي اليه برائحته الكريهة التي كان يتخيل انها لا تبرح ثيابه .. بل انها لا تبرح الارض التي تطوءها قدماه .

ولما وصل الى المدفن لاحظ على ضوء القمر آثار اقدام وقطعا من أوراق التبغ مبعثرة هنا وهناك وحفرة غير مطموسة تدل على ان شيئا ما حدث لتبغه الدفين .

ولم ينتظر أحمد طويلا ليفهم ما حدث .. واعتراه دوار عنيف وتوتر وقلق .. وتجمد في مكانه كأنما رجلاه كانتا تغوصان في الرمال الناعمة فلا يستطيع رفعهما . وكانت عيناه مسمرتين في الفضاء .. واقعتين على القمر الذي كان شاهدا على الجريمة .. لقد تأكد احمد ان تبغه قد سرق منه جميعا . وقال في نفسه ان هذا اخف الضررين .. فلو عرفت به السلطات لكان مصيره غير هذا .. ان في الشر ما تختار .. ولكن أولاده .. ديونه .. أهله .. انه لا يستطيع ان يتتبع السارق او يخبر عنه .. ولو فعل ذلك لكان فيه نهايته هو .. انه الآن مغلول العنق اخرس اللسان .

وحاول ان يلتفت او يدور في مكانه .. ان يفعل او يقول شيئا .. فكر في سؤال الارض .. القمر .. قطع الورق المتناثرة .. وقال في نفسه : اذا لم ترشدني هذه الكائنات الى سارق تبغي فما الفائدة منها ؟ ما قيمة هذه الكائنات اذا لم تساعده في الكشف عن اللص .. ان الغريق يتعلق حتى

بالاوهام .. وها هو الآن غريق ولكنه لا يجد حتى الاوهام يتعلق بها .. لقد أحس ان كل شيء صامت جامد يثير الغثيان .

ومضت الدقائق ثقيلة محمومة لا تعبر عن شيء سوى هذه الدقات المتوالية في دم أحمد .. وكأن احدى تلك الدقات اليائسة هتفت به ان يلتفت .. هناك .. مترا واحدا او مترين .. الى الحفرة الثانية التي كان اقترحها عليه عبد الحميد .. لعلها ..

وقفز من مكانه كأنما قذف به تيار كهربائي عنيف .. وانكب على الأرض وراح يحفر ويلهث كظمآن اشرف على نهايته في اعماق صحراء صائفة .. ولم يلبث ان تعلقت اصابعه بشيء .. انه تبغه .. وادخل اصابعه في طيات الورق الذي كان يتحطم قطعا قطعا .. ومع ذلك استمر في التأكد منه فكأنه لا يصدق انه هو تبغه .. ثم أخرج قبضة منه محطمة وقربها من عينيه حتى دمعتا ومن انفه حتى عطس ! لقد أحس لتبغه هذه المرة برائحة عطرة لم يعرفها فيه من قبل .. ان فيه رائحة الارض والعرق والأمل .. ثم جذب منه نفسا طويلا هادئا وسحبه بتحد كالواثق بأنه لا ينهزم ..

قضى احمد خارج منزله حوالي ساعتين . وعندما رجع إليه أحس أنه مايزال على ظهره بعض الأمل والحياة .

وفي الليلة الموالية اعدّ احمد مكانا سريا يناسب ما هو مقدم عليه من عمل خطير .. وجهز لضيفه ، او لمنقذه من قلقة ، (العلوى) عشاء كلفه ثمنا غاليا .. فقد ذبح له الدجاجة

البيضاء الوحيدة التي كان بيضها هو الدواء الوحيد لابنائه كلما ساءت حالة صدورهم ولزوجته كلما نفست .. وأمر زوجته بالنوم مع الأولاد مبكرين حتى اذا جاء احد الجيران لم يجد في المنزل من يتحدث اليه ...

ورحب احمد بضيفه (العلوى) وصحبه الى المكان المعد للعشاء والعمل المتفق عليه .. ولما انتهيا من ذلك وضع كل منهما لثاما ليمنع غبار التبغ من التسرب الى الانف والحلق .. وآخذا في تنقية الورق بازالته عن الشجيرات اليابسة .. كان الحذر والصمت سائدين .. وكان كل منهما يحاول .. ان يكون ترديد النفس بشكل خفي ..

ولكن أحمد ، مع ذلك ، سمع في اعماق الليل والصمت صوتا يناديه باسمه .. وسبق لذهنه انه صديقه عبد الحميد لأنه الوحيد الذي يعرف كل شيء عما يجري في هذه الليلة .. خرج احمد من مكمنه دون ان يغير شيئا .. ولكن عينيه وقعتا على منظر جمده في مكانه كعمود من خشب أو حديد .. رغم ان الصوت نفسه ما يزال يدعوه الى التقدم .. ولم تمض سوى بضع ثوان حتى كان أحمد يسير بين عدد من رجال المخابرات الفرنسية وفي يديه الحديد ..

القاهرة 1956/12/1

ليلـــة غـــرام

أكتب اليك هذه المناجاة في شكل رسالة . وان كانت غير آتية على أساليب الرسائل ابدا .. وانما هي رؤيا غرام أبثها معك على شاطىء الأحلام الجميلة .. كنت أعيش معك في أكثر الليالي على مناجاة تزعجني مرة حتى أكاد اختنق بأنفاسي .. وتطير بي أخرى في عالم الافراح والاماني ..

ولكن هذه الليلة لم تكن فقط ليلة غرام وما في الغرام من ازعاج وافراح .. ولم تكن على شاطىء الاحلام كما كانت جل ليالينا .. بل انها كانت ليلة بددتها معك على ارجوحة الحب في ظلال الخلود .. لقد انبعثت لي من سمائها آمال جديدة وظفرت فيها من قلبك الضنين بنفحة من عطفك ، ومن مشاعرك بلفتة من حنان ، بعد ان كاد هذا الحب يهد نفسي هدا وهذا الجفاء منك او منى ــ لست أدري ــ يقضي على هذا النثار الجميل من أحلامنا الجميلة ..

أكتب اليك ما سأكتب ، فهل ستقرأينه بامعان على أنه شعوري الدائم نحوك مدى الحياة ؟ ذلك ما أرجوه منك والح عليه فهل تفعلين ؟ انه ـــ والله ـــ ما كاد يطلع الفجر حتى كان سواده في الورق .. فقد خفت على تلك الاحلام ان تتبعثر ، فقمت وانا مأخوذ بدافع الحب ، اسجل ما انطبع في ذاكرتي من لذيذ النجوى .. ثم استلقيت في مضجعي استعيد صور الجمال وارسل خواطري في فضاء حالم لتشرح لي اسرار قلبك المغلق .. فهل استطاعت ؟

★ ★ ★

الليل مستيقظ .. والسكون سائد .. وانت في غرفة مظلمة الا من أشعة باهتة تنفذ من كوة في الجدار .. ولست ادري ان كانت تلك الاشعة من القمر الشاحب ام من شمعة نائية تحترق خارج الغرفة فوجد نورها سبيلا الى الغرفة فنفذ .

وكنت انت تجلسين على كرسي بين سريرين وثيرين واضعة يدك الرخصة تحت ذقنك وانت مستغرقة في تفكير عميق ..

فجئت انا .. ولست ادري من اين جئت ، غير انني نظرت في الباب فوجدتك على تلك الحال فلم أشأ ان افسد عليك تفكيرك العميق ..

ولما طال وقوفي قرعت الباب وانتظرت فلم تجيبي .. ولم تبدي اي حركة .. فكررت الطرق ثم دخلت لان الباب كان

غير موصود .. دخلت بهدوء دون سلام ودون ازعاج .. ولم نكن على ميعاد .. وجلست على كرسي كان بقربك .. فلم تبدني أي اهتمام بمن جاء ولا بمن جلس كأنك كنت تتعمدين الاعراض ..

ولكني اخذت يدك وضغطت عليها بكلتا يدى وقلت : اراك منذ حين دائمة التفكير ، ترى ماذا اعتراك من شجون ؟

فقلت — ولم تتحولي عما انت فيه — : انها خواطر مبعثرة احاول جمعها .

قلت : قد كنت تنهينني عن الاستغراق في التفكير والشعور والاحلام .. فمالك انت والخواطر المبعثرة ؟

قلت مذعورة ، ولكنك تحكمت في اعصابك : انت هنا ؟ كيف جئت والكون غارق في الظلام ؟

قلت وانا مطرق الى الأرض : كنت أعيش في وحشة دائمة ، غير راض بالحياة ، وخيل الي انك مثلي ، وحيدة تعيشين أيضا في وحشة .. فجئت التمس فيك الروح المؤنسة مدى الحياة .

قلت : لم افهم ما تعني ، انك تسبح في الخيال .

قلت : انا أكره الخيال في هذه الامور .. ويقيني ان اتكلم نفس الحقيقة .. فاذا اصررت على انه سبح في الخيال فليكن هو مبدأ الحقيقة ..

قلت ، وقد فهمت ما اعني ولكنك تماديت : ذلك شيء محال ..

قلت : ولكن الفلسفة تقرر ان الحقيقة مبدؤها الخيال

قلت : أنا تلميذة احمد أمين ، وهو علمي واقعي لا يؤمن بالخيال ابدا ..

قلت : ولكنك لم تقرئي لاحمد أمين في مجلة (الهلال) قوله .. والحب روحه خيال محض ..

قلت : على كل .. انا تلميذته في الواقعيات ، وهذا حسبي ..

قلت : وانا تلميذك انت في كل شيء .. حتى ..

قلت : وقد فهمت قصدي : الم أقل لك انك تعيش في الخيال ؟

قلت : حسبي انني لم اكن متحجر الفكر جامد العواطف .. انني اشعر بجمال الحياة .. واحلم بفنيات الطبيعة .

قلت مبتسمة : اذن فأنا عندك متحجرة الفكر جامدة العواطف

قلت : لست ادري ، ولكن استغراقك في التفكير منذ لحظة ينبىء بانك حية العواطف فنية الشعور ذواقة للجمال .. غير انك ولوعة بالانكار لتلقى في روعي انك مخلوقة شاذة .. والا فما هي خواطرك المبعثرة اذا لم تكن صورا لذيذة من الخيال اللذيذ ؟

وهنا سكتنا برهة ، وأخذ بصرك يجوب اجواء الغرفة ، ثم قلت متنهدة وانت ما تزالين على تلك الحال : لو كنت فنانة لرسمت خواطري في لوحة خالدة ليشهدها المستقبل .. ولو كنت شاعرة لنظمتها قصيدة ترشح بالاشواق والحنين .

قلت : هل يرضيك ان أنظمها انا على لسانك قصيدة ترشح بالدموع والزفرات .

قلت ضاحكة : انك لا تستطيع الا اذا كنت تحس احساسي وتعيش عيشتي وتنبض بنبضات قلبي

قلت بعد صمت : لقد عنيتك انت بقصيدتي (يا حبي) .

قلت : لقد كنت انتظر ان اسألك عن معناها .

قلت : ان كل شيء هناك .. وان شئت عودي بالذكرى الى اصائل تونس الجميلة .

قلت في اهتمام : كانك تريد ان تقول شيئا ولكنك لا تجرؤ على البوح به ..

قلت في تردد : أنا ؟ نعم .. نعم .. انني أخشى .. أخشى الزمن .

وسكتنا وأطرقنا معا لحظة .. وقد ارسلت عيناى دمعتين حارتين .. ولست ادري ماذا فعلت انت لأن الظلام كان يخفي علي كثيرا من ملامحك .

ثم قلت لك : بالله ما رأيك لو جاءك احد لا تعرفينه ابدا وخاطبك من عالم الغيب وانت وحيدة تناجين نفسك وقال لك : ان هناك من نسي كل شيء في دنياه الا انت .. نسي اهله وذويه واخص الاخصاء لديه الا أنت .. وانك لو اشرت عليه بالجحيم لا ستعذبها ، ولو اشرت عليه بالموت لاقدم عليه راضيا .. ماذا يكون موقفك منه ؟ وماذا تقولين لهذا الرسول الذي لم يرسله الا سلطان الحب ؟

قلت : ابتليه حتى اعرف اخلاصه .

قلت : فاذا تحققت من ذلك ؟

قلت : اعذبه بالاعراض عنه حتى اتأكد من صدق حبه .

قلت : فاذا كان كل ذلك ؟

قلت : عندئذ فقط .. ابادله حبا بحب . ودموعا بدموع وأدمجه في نفسي وأصافيه كأس الحياة

قلت : فاذا كان ذلك الانسان طريد الحياة من اجلك ، فهل تؤوينه وتؤنسينه ؟

قلت : انك تعرض وتلمح .. وقد فهمت كل شيء ، فلماذا لم تصرح ؟

قلت : ان هناك شعورا داخليا يجعلني اخافك واقدسك ، لانك في قلبي فوق منزلة العبادة .. ولو وجدت

سبيلا اليها لفعلت .. ولكن قلبي — وهو نبع حياتي — ملك لك فافعلي به ما تشائين .

قلت : اطمئن .. ولا تجهد نفسك .. فقد كنت افكر فيمن يؤنس وحشتي ويصدقني الوداد .. وهيأت له موضع السر عندي .. ذلك اني وجدت كل الناس يعيشون على الخيانة والنفاق والكذب .. فهل يروقك ان نعيش لبعضنا ؟

قلت : ولكن الزمن .. والمستقبل ..

قلت : اذا تصافت القلوب بالحب والاخلاص فانها تتحدى الزمن والمستقبل .. تحديا يجعلهما طائعين ذلولين .

★ ★ ★

وأشرقت الغرفة بضوء لا أدري من اين ، كأنه كان مختبئا وراء هذه الكلمات .. وتعانقنا صامتين وشرقنا بدموعنا .. وضممتك الى قلبي في لهفة وضممتني انت في حنان ، واحسست لهيب قلبي يزداد اتقادا .. وظللنا كذلك الى الفجر الطافح .. ونحن في نشوة الحب وهدهدة العواطف الجميلة .

★ ★ ★

استيقظت من هذا الحلم اللذيذ وشفتاي جافتان وعليهما طعم احلى منه الملح الاجاج . وعيناي مضمختان بالدموع .. ويدي اليمنى ملقاة على الجانب الآخر من الفراش وهي تمسك بقبضة من الفراغ ..

تونس ء حوالي ، 1953

ممنوع الدخــــول ...

طوى الورقة بحركة سريعة وتنحنح بصوت عال ، وأخرج منديلا بصق فيه ، ثم سار بخطى حاول ان تكون غير مرتبكة حتى لا يشك فيه رجل البوليس الذي كان بالقرب منه .. وحين انتهى الى أول عطفة في الشارع أسند ظهره الى الحائط لتمر الاقدام التي كان يحس انها تتبعه .. ثم جرى على أطراف قدميه الى الرصيف الآخر ووصل الى مقهى جانبي يملكه أحد الجزائريين المهاجرين في فرنسا .

وكان صاحب المقهى يطوف على زبائنه بنفسه ، وكان طويل القامة حاد النظر ، حازما في كلامه ومشيته كأنه يتحدى الشيخوخة التي بدأت تسعى اليه .. والى جانب ذلك كان الحاج أحمد يحتفظ بلهجته العربية الجزائرية ويعتبرها أعز شيء بقى له في دار الغربة ، وكان في المقهى ضجيج وقهقهات ونقرات

(الدمينو) وبعض أصوات عربية وأخرى فرنسية وكان هذا المقهى يبدو محبوبا لرواده لولا البوليس الذي يتردد عليه بين حين وآخر للتحقيق مع البعض والقبض على آخرين من المشبوهين .

أما هو فقد دخل المقهى هادئا ، واقترب من الحاج الذي كان يغسل الفناجين وأخرج حزمة من الورق ومدها الى الحاج بسرعة دون ان يراه أحد وأوصاه بطيها واحدة واحدة وتقديم طية منها لكل جزائري يرتاد مقهاه مع فنجان قهوة ، كما أوصاه ان يحذر عيون البوليس لأن هذه الحزمة هي منشورات بعث بها جيش التحرير من الجزائر وفيها نداءات الى العمال والى جميع المقيمين هنا من الجزائريين . وقد دعاه الحاج الى تناول قهوة ولكنه اعتذر بأنه سيذهب حالا الى بعض الصحف خلسة ليدس بعض المناشير ثم يعود الى غرفته لينام .

وعاد بعد منتصف الليل فوجد زميله قد نام فعمد الى شمعة واضاءها داخل الحمام وآخرج من ثنايا قبعته ورقة صغيرة قرأ فيها .

ــ «أخانا طارق .. باسم الوطن نرجوك أن تعهد بأعمالك هناك الى من تثق فيه من اخوانك وتتوجه الينا سريعا فان الوطن في حاجة الى خبرتك العسكرية .. ونرجو ان لا يتأخر وصولك عن اسبوع .. اخبرنا قبلا .. وستجد كل شيء في انتظارك حسب التعليمات التي تعطيها القيادة الى المسؤولين في الحدود .»

وعلى حركة زميله أطفأ الشمعة بعد ان أحرق الورقة وتسلل الى فراشه وحاول ان ينام . ولكن التفكير في تنفيذ هذه الخطة قد ملك عليه آفاق غرفته وخياله ومد عينيه الى أفق مجهول .. ترى بأي وسيلة سيدخل الجزائر ؟ بالهروب ؟ ان هذا فضلا عن كونه مغامرة فانه غير مقنع بالنجاح . بالسفر العادي ؟ وكيف ذلك ؟ الم يعيدوا كل الجزائريين من مرسيليا في الأسبوع الماضي فقط بعد ان تخلوا هنا عن عملهم للسفر .. وها هم اليوم يقضون فراغهم في مقهى الحاج أحمد طول النهار وشطرا من الليل .. مساكين هؤلاء .. انهم بلا عمل وبلا مصير .. انهم هناك يدفنون انفسهم في تلك القهقهات التي ينتزعونها من أعماقهم الخاوية من المستقبل .. ولكن اليس له سبب معقول .. رسالة أبيه مثلا يجب ان يحملها اليهم اذا عارضوا في منحه اذنا بالسفر .. لقد كانت تلك الرسالة بالنسبة له لا تساوي شيئا .. أما اليوم فإنها قد تكون سببا في عمل أعظم .. عمل وطني رائع . ليتهم ينسون حقدهم حين يقف أمامهم طالبا الاذن بالدخول الى الجزائر . الا يمكن للانسان ان يعيش بدون حقد بعض الوقت ؟ سيقولون له أولا لا عذر لك .. وهنا سيريهم الرسالة وسيقول لهم في تأثر اقرؤوا .. أمي ماتت .. وأختي هربت .. أبي وحيد على فراش الموت .. اليس هذا عذرا مقبولا ؟ سيفكرون طبعا ..ليفكروا ولكن بأية كلمة سيردون عليه .. ان الفرنسيين لا يتحاشون الكلمات المريضة والمحرمة والسخيفة والقاتلة .. ولكنه سيحتمل كل شيء

في سبيل ان ينطقوا بواحدة غير هذه ليقولوا له مثلا .. تفضل أيها الجحش الجزائري وأركب البحر الى جهنم .. لا سلمك الله من قبضة جنودنا .. وسيبلع هو كل هذا وسيترك لهم الجحش والبحر وجهنم وسيحمل معه فقط جزائريته ويبعث اليهم من هناك ببعض اشلاء جنودهم ..

وفي الصباح حمل الرسالة وتوجه أولا ليحاول اقتطاع تذكرة ولكن العامل رفض ان يقطعه ونبهه الى ان القانون الجديد يقضي بمنع الدخول الى الجزائر الا باذن من المختصين .

والواقع انه لم يصدم بهذا الرفض فهو نفسه كان يريد ان يجرب فقط .. اما وقد باءت التجربة بالفشل فلا بد له من محاولة جديدة ..

وقد تخيل ان أمله قوى في النجاح هذه المرة ، وانهم لا بد ان يعطوه تصريحا بالدخول فان الانسان لا يمنع من الدخول الى وطنه بدون سبب ، هذا من ناحية .. وأيضا فان هم أصروا على الرفض بدون سبب فان هذه الرسالة الحزينة لا بد ان تحرك انسانيتهم بالعطف على ابيه الذي يموت وحيدا مهما كانت قلوبهم من حجارة أو من حديد .

وانتهى الى قسم الترخيص فتقدم من رجل يبدو أنه من المباحث وأراه بطاقته الشخصية وطلب منه التصريح غير ان الرجل بادره بهذا السؤال —

— هل لك علاقة بالثوار ؟

ـ لا .
ـ ما هي اسماء أعضاء الجبهة ؟
ـ لا أعرفهم الا من الصحف الفرنسية
ـ ما عملك هنا ؟
ـ عامل في مصنع ... للأحذية .
ـ هل لك نشاط في جبهة التحرير ؟
ـ ليس لي عمل خارج المصنع .
ـ لماذا تطلب الدخول الى الجزائر ؟
ـ لزيارة والدي الذي يموت .
ـ وما رأيك في الثوار ؟
ـ ليس لي رأي .
ـ هل ستنضم اليهم ؟
ـ ان أبي هو الذي دعاني بهذه الرسالة .

وأخذ رجل المباحث الرسالة والقى عليها نظرة سريعة ثم زعق .

ـ أين هربت أختك . لقد التحقت بالثوار ، اليس كذلك ؟... المجرمة ، ستلقى جزاءها . ثم ضرب المكتب بقبضته وهو يقول :

ـ وانت تريد أن تهرب منا أيضا . هيهات . لن اسمح لك بهذا .. لن تبرح فرنسا أبدا . ان دخول الجزائر مستحيل .. هل تفهم ؟

وتمالك طارق نفسه ثم قال وهو يتأخر قليلا .. انني لم

آتك ثائرا أيها السيد . ولكن والدي هو الذي دعاني وهو لا شك في حالة سيئة جدا .

ــ وليمت والدك وليذهب الى الجحيم .. لقد قلت لك ان الدخول ممنوع . ان شرف فرنسا يفرض على ان امنعك أخرج حالا ولا تعد . ان عيونكم تشتعل حقدا أيها العرب .

وجر طارق قدميه الى الشارع الصاخب وشعر بألم شديد يمزقه وسحابة تغشى عينيه . لقد يئس الآن فيما يبدو ولم يعد له أمل في دخول الجزائر دون مغامرة . وهم هناك اخوانه ينتظرونه والواقع انه واحد منهم . يعني انه فدائي مثلهم ، والفدائي يحمل مصرعه وحياته في كفه دائما .. ليتهم لم يدعوه باسم الوطن انهم لو دعوه باسمهم لكان عنده مجال للتفكير . ولكنهم قطعوا عليه الطريق وربطوه بمصيره وكرامته .. وكيف سيغامر ؟ هل يذهب الى القاهرة ؟ ولكن السفر الى القاهرة يعنى في نظر الفرنسيين ما يعنيه الالتجاء الى تل ابيب في نظر العرب . وكيف يفكر في روما وما يزال اخوانه المقبوض عليهم هناك في طريقهم الى فرنسا .. الى السجن الحديدي . ومرسيليا ؟ الم يكفه ما شهده بنفسه في الشهر الماضي . ثلاثمائة يعادون من عرض البحر ليفنوا وراء القضبان .

وان ذنبهم الوحيد انهم عائدون الى وطنهم . وربما كانوا سينضمون الى المجاهدين ، لكن هل هذا يعني الخيانة والسجن والاعدام ؟ ومن أين له ان يجتاز حدود مرسيليا ؟ ان بقاءه هنا

والحالة هذه قد ينفع الوطن اذ لو سجنوه كالآخرين لانتهى بذلك عمله في الصفوف الخلفية لجيش التحرير .

كانت الساعة العاشرة والنصف صباحا عندما دخل طارق مقهى الحاج احمد الذي كان ما يزال خاليا من رواده ما عدا اثنين يلعبان الديمنو في زاوية نائية . وقد فوجىء الحاج بطارق لأنه لم يتعود منه المجيء في مثل هذه الساعة . ان الذين يترددون على مقهاه من الان هم أولئك الذين فصلوا عن عملهم وتركوا لغرفهم تمتصهم ، او لهذا المقهى المهجور يملأ عليهم فراغهم الاسود ..أما طارق فلم يعرفه الا عاملا لا يتخلى رغم نشاطه الكثير ..وقد بدا للحاج أن مجيئه متصل بمهمة البارحة فبادره بصوت مهموس :

ــ وزعت كل المنشورات والحمد لله لم يفطن البوليس لشيء . ثم سأله .

هل قرأت ما كتبته الصحيفة ...اليوم ؟ وقبل أن يجيبه هرول ثم عاد يحمل الصحيفة وهو يقول انظر لقد كتبت كل ما في المنشور أيضا . وعلقت عليه بقولها «ان حكومتنا طالما أخفت الحقائق على الشعب الفرنسي ولكن ماذا عساها تقول عندما تطالع ويطالع الشعب معها نص هذا المنشور الذي لاتنقصه البراهين ..ان على الشعب الفرنسي أن يعيش جيدا مضمون الثوار الجزائريين» . الا ترى ان هذا الكلام سيكون قنبلة لها ضحايا كثيرون في صفوف المستعمرين ...إن ثورتنا

تحتاج الى عمل داخلي حاسم وقاس كما تحتاج الى عمل خارجي منظم قوي إن فرنسا لا تحاربنا بالاسلحة الحديثة وحدها ولكنها تحاربنا بالدعاية الحديثة أيضا فنحن شيوعيون مرة ، ونازيون أخرى ، وعصاة مرة ثالثة .

ولكن طارق صعد نفسا بطيئا وقال يخاطب الحاج .. دعنا من هذا الموضوع الآن يا سي الحاج يجب أن تعرف أني سأدخل الجزائر وهؤلاء لم يمنحوني اذنا بذلك وقد حملت اليهم رسالة أبي لعلهم يرحمون ولكنهم أصروا على الرفض وثاروا في وجهي سيما بعد أن عرفوا أن اختي هربت وقد فهموا انها التحقت بجيش التحرير لا غير ..وها انا قد عدمت كل الوسائل القانونية للدخول ولم يبق أمامي سوى المخاطرة .

وكان الحاج مندهشا على ذكر السفر فقال :

ـــ ومن للعمال والمنشورات وجمع المال يا طارق ؟ إن أباك لن يتركه المجاهدون .. ولو عرف ما تقوم به هنا لما استدعاك .. انك مخطيء يابني اذا استجبت لأبيك في مثل هذه الظروف التي تجتازها قضيتنا .. إن عهدي بك تكتم عواطفك يا طارق .

ـــ ليس أبي هو السبب الحقيقي يا سي الحاج لقد استدعيت من الجزائر .

ـــ اذن تقصد ان هناك امرا من القيادة ؟.

ـــ المهم انه يجب ان اسافر في ظرف خمسة أيام وانت تعرف معنى (يجب) في اصطلاح جيش التحرير .

ـــ والى من ستعهد بمهمتك في باريس ؟.

ـــ ستعرف ذلك عندما اجد طريقا الى السفر .

ـــ يجب ان لاتتساهل يا طارق ..إن آلاف الجزائريين سيصبحون عرضة للاضطهادات عند اول غلطة منك .

ـــ إنني مقدر كل الاحتمالات . على أننا سنلتقي غدا كالعادة في المسجد ، وسألقي خطابا بعد الصلاة ونوزع بعض المنشورات التي علينا ان نعدها هذا المساء ...

وسمع الحاج نداء احد الزبائن فسارع اليه ثم عاد وهو يهمس لطارق :

ـــ لقد نسيت أن انبهك الى أن البوليس جاء يسأل عنك منذ ساعتين وانا متوقع انه سيعود حالما لم يجدك في غرفتك ..ان بحثه قد يكون سببه المنشورات التي وزعتها والتي تحث الجزائريين على الاشتراك في مظاهرة يوم الاحد ..إن البوليس الفرنسي يجن عندما يسمع بمظاهرة الجزائريين

ـــ ولماذا لم تقل ان ذلك الغبي صاحب المصنع هو الذي اخبرهم بتغيبي عن العمل هذه المدة .على كل حال قابلني الليلة في الغرفة نصف الليل والاشارة (ج ـــ ت)..انك ستتعلم شؤون الثورة هنا وسوف تكون مسؤولا منذ غد ..ويجب أن تأخذ حذرك بعد غد فان المظاهرة ستكون عنيفة وسيركب البوليس فيها رأسه ولكن يجب ان تتم على أية حال كأعنف ما

تكون ..أما انا فسأبيت في مكان آخر بعيدا عن الغرفة حتى لا أقع في قبضة البوليس ..انها آخر ليلة في هذا السجن ..باريس .

وبعد اسبوعين تلقى الحاج احمد رسالة من غير امضاء يقول صاحبها فيها لا تسأل كيف دخلت الجزائر ...انني لم اقل لك في الاول خشية اذاعة السر الدي صنعه الابطال . انني مدين اولا لذلك السفير العربي الذي زودني بكل الترتيبات القانونية .. ومدين ثانية لنظام جيشنا الذي التقطني من بين افواه المدافع الفاغرة والعيون الحمراء الرابضة على الحدود ..لا تصدق ما كنت قلته لك عن مرض ابي وموت أمي ..إن اختي هي التي كتبت تلك الرسالة ظنا منها انها تساعدني ..وان ابي يصنع المتفجرات واختي تعمل ممرضة الى جانب اعمال أخرى ، وانا اقوم بتدريب المتطوعين يوميا .اما منزلنا فقد حطمه انتقام العدو فيما حطم من منازلنا ومشاتينا وأما أمي فتقيم الآن في منزل صديق لنا حيث تزورها اختي اسبوعيا لتحمل اليها نصيبها من مساعدات جيش التحرير ..

(*) نشرت في مجلة المجاهد الثقافي عدد 11 سنة 1970 .

عندمـــا لبســت العمـــامــة

من تقاليد التخرج من جامع الزيتونة (تونس) القاء درس أمام لجنة من كبار الشيوخ ولبس الطالب العمامة أثناء الدرس ولو كان لا يلبسها قبل ذلك . ولذلك فقد كان علي أن ألبس العامة أثناء التخرج سنة 1954 . وقد كتبت بعد تخرجي مباشرة هذه الصورة لما حدث لي أثناء الدرس ، بعنوان (عندما لبست العمامة) ودفعته الى البصائر التي غيرته الى (من ذكريات أيام الامتحان) ونشرته في باب (المنبر الحر) . وقد أثار ذلك ضجة وكادت تحدث أزمة بين معهد ابن باديس وجامع الزيتونة من جهة وادارة البصائر من جهة أخرى ذلك أن المعهد كان يتبع علميا جامع الزيتونة . وتخفيفا لذلك كتب شيخ من شيوخ المعهد ردا علي . ولا شك أن في هذه الصورة جرأة لا أقرها اليوم ، وانما هي ثورة الشباب عندئذ والثورة على التقاليد وحب التمرد .

★ ★

كانت أجمل أمنياتي ان اكتشط (1) ، وان اختال عبر الصفوف المتكاثفة من حولي ، ولست ادري لماذا كانت أجمل احلامي . فقد يكون ذلك لغرابة الموقف وقد يكون لشذوذ في الطبيعة حول هذا الشعار المقدس ، بيد اني استطيع ان احدد خواطر عابرة تنسحب في ذهني كلما تمثلت لي اطيافها ، فحين أُعلِنَ عن نجاحي في الكتابي لم تأخذ مني نشوة الفرح بقدر ما أخذ مني عامل الفزع المرتقب ، وبالاحرى عامل الاحتياط للشكل الجديد الذي ظلت تساورني خيالاته من زمان .

ولما ذهبت التمس العمامة من أحد اساتذتي ، شعرت بالخجل يغمر شخصي لا لشيء الا لأني كنت قلت له يوما وهو يذكر مزايا اتحاد الشعار : ما أجدر رجال الدين ان يصعدوا الى السماء بالبراشيت ليطالعوا أسرار الكون بالتلسكوب ، ولا يعنيني ـــ الآن ـــ ان يكون الشيخ قد فهم هذه الجملة الرمزية على وجهها أو تأولها .. فالمهم اني كنت أحد الذين عنتهم تلك الجملة ولو الى حين ، وان يكتشط مثلي جالسا أمام أربعة شيوخ معممين طويلى اللحي تتراقص أعينهم الغائرة خلال النظارات ، وتطوق أعناقهم كشاكيل ملونة كأطياف القزح ، وحولهم حلقة مفرغة من التلاميذ لا يدري أين طرفاها .

كان أوسطهم مكور العمامة كث اللحية أبيضها ، جهم التقاسيم اشيب الشعر ، طويل العنق حتى دعاه

---

(1) من الكشطة وهي العمامة في مصطلح الزيتونيين .

«المتمردون» من التلاميذ : «الزرافة» . وحين استقبلته اخذ يتفرسنى من وراء منظاره الزجاجي كأنني من أسارى سوق الرقيق ، أو كأنه يحاول أن يلقى الرعب في قلبي ليخيل الي انه (راسبوتين) (1) الذي قهر القيصر بالاسجاع والتعاويذ ، فلم يسعني ــ ادن ــ الاغض بصري كما أفعل مع كل جميل لأطبق مذهب (لامارتين) ، ولكني ما كدت اتعوذ من الشيطان الرجيم حتى ابتدرني قائلا : مالك ــ يا شيخ ــ حالق اللحية افلا تعلم انك في الجامع ؟ وخيل الي اني أقول له متحديا : انها لا تهمني الاجابة عن هذا السؤال . ولكن المصير تمثل لي بشرا سويا يقول : طبعا ، أعلم جيدا اني في الجامع ، غير ان وجهي لم ينبت الشعر بعد ، ولكن الشيخ حول السؤال ليقول وهو يصلح نظارته : طيب ، وهذا .. وحاولت ان أعرف الى أين يشير الشيخ فتبينت ــ بعد لأي ــ ان ثلث صدري عريان ، واني في موقف حرج .

وأوشكت ان اتفادى المسألة بتحويل الشيخ الى صميم الموضوع فأقول : ان اسئلتكم ليست من الدرس في شيء . ولكن المصير وقف على رأسي يهمس : لقد حاولت ان أحكم الزر فتكسر بين أصابعي قبل الآن بلحظة ، وليس لدى من الوقت ما يسمح لي بتدارك اصلاحه . وما كدت اتم الجملة حتى سمعت التلاميذ من ورائي يقهقهون .. وكم وددت في تلك

---

(1) راسبوتين رجل دين وسياسة في روسيا ، وكان من حاشية القيصر نيقولا الثناي وزوجته .

اللحظة ان اعرف ما شاع بين الشيوخ من همسات تلتها بسمات ، ولكنه القصور قاتله اللّه .

هذه واحدة .. اما الأخرى فاذكر اني جئت مبكرا أزهو بعمامتي تحت الأضواء الساطعة ، والضباب القذر المتصاعد ، وأضاحك زملائي لنروح عن نفوسنا ما نحن فيه من وجل الارتقاب . ولما حان دوري تقدمت وفي قلبي رهبة جارفة وفي حركاتي اضطراب عاصف ، ولكني تحملت اذ أصبحت شفتا الشيخ ترتجفان بالسؤال ، وكنت أبالغ في الاصغاء لنبراته المحتشمة الوقور ، ولكن ما راعني الا عينا الشيخ تلتهمانني بحدة خارقة للعادة ، ووراء تلك الحدة ابتسامة غامرة أفهمتني مرارة الازدراء والحقارة .. وأنتظرت النتيجة فاذا هي هذا السؤال المعربد : هل تستطيع ان تعرب لي : «فلو ذات سوار لطمتني لهان علي» فلم اتمالك ان تلفت حولي لأرى .. ولكني لم ألق الا وجوها كالحة وشتائم تعتلى شفاه التلاميذ خيفة من هذا الجزار المنتقم .

وبين ضجيج التوهمات التي اخذت تصخب في دماغي انقدح لي خاطر نبه فيّ العنصر السقراطي الخالد فرجعت لنفسي ابحث عنها .. نعم لقد كان الشيخ يعنيني من غير شك ، ولن يعني سواي مادمت أنا الخروف الذي يريد ، وما دمت أنا الذي نسيت ساعتي في معصمي فجنيت على نفسي من حيث لا أريد ، بل ما دمت أنا الذي تجرأت على التراث المقدس فلم ارع له حرمة ولم أقرأ له حسابا حيث شغلت معصمي بحافظة الوقت

ونسيت ان العمامة البيضاء التي تتوج هامتي هي عنوان الترهب والفرار من عالم الصراع .. ولو لا المصير والجبن لقلت في مرارة حاقدة : ان حاتم الطائي كان رجل الشيخ والقيصوم لا هبيخ الدمقس والحرير ، كان رجل الصراع الدامي لا شبح الركون والانخذال ، كان انسانا حرا لا دمية تقول ما لم تفعل ، غير اني عدت الى نفسي ووكلت أمري للّه ثم اخذت في الاعراب .*

---

* (نشرت في البصائر عدد 285 ، 3 ديسمبر 1954 .

مــع أديـــب الخلــود

(لاتطلب سرعة العمل واطلب تجويده ، فان الناس لا يسألون في كم فرغ ، وانما ينظرون الى اتقانه وجودة صنعته)

أفلا طون

* *

أقبل متئد الخطى ساهم النظرات عليه مسحة من كآبة وملامح من فتور . لا يحسبه الناظر الا مثقلا باحمال الأرض وهمومها . وكان يؤرجح محفظة ضخمة ــ على عادته ــ بها وفرة من الكتب والمجلات الحديثة ونماذج من جذاذات لمواد بعض الكتب التي يعتزم النية لأخراجها ليتناولها بالتحقيق والمناقشة . وما كادت قدمه تنتهي به الى حيث التحية حتى ابتدرته لعلى ادفع باتجاه حواسه نحو الانشراح والتسري وأشعره بنغمة الحياة حوله ...

قلت لقد قرأت قصيدتك في «البصائر» و «الأسبوع» وأعجبت بهما ايما اعجاب . ولا شك ان الادباء قد اعترفوا لك بالشاعرية التي لاحت تباشيرها . وسيلحون عليك في نشر ماتهيأ لك من شعر ومقالات تحمل طابع الجمال والحيوية والخلود ..

قال في لهجة اليائس : ذلك حق ولكن مطلبه عزيز وقد فكرت منذ سنين ــ أي حين لاحت اعلام المعرفة والثقافة في الجزائر على يد جمعية العلماء ــ ان اذيع دعوة الى تأليف «مدرسيات» حديثة تجمع منتخبات من نتاج جيد ، مختلف النزعات ، متنوع الأغراض لشعراء وكتاب حديثين . ولكني اكتفيت بالتعريض فيما أكتب وكتمتها حسرات تقض مضجعي ، وتزعج أحلامي ، الى ان تحين الساعة التي تثب فيها من وجودي وتصبح «شيئا» واقعيا يعتبره الجيل الجديد .

قلت : كأنك تعرض «بجمعية العلماء» فهل هي مستطيعة ان تحقق امنيتك اللذيذة التي تساورك منذ حين ، ولم تفعل .

قال : اعتقد ذلك واعلله .

قلت : فكيف ذلك ؟ انه لرأي عظيم له ما بعده .

قال : لا يختلف اثنان في ان جمعية العلماء هي المؤسسة القومية الوحيدة التي تصدت للتربية والتثقيف في القطر

الجزائري . ولاغرو ان مساعدة الادباء على رسالتهم مما يزهر الثقافة ويدفع بالانتاج القومي نحو السمو والازدهار ..

فقاطعته مستفهما بقولي : أي مساعدة تعني ؟ لعلك تريد الطباعة والنشر والشركات التي تصور نهضتنا الحديثة في الآداب والفنون .

قال : لا ، انه عمل أسهل وأنفع — في ذاته — مما يحوم حوله من شكوك .. وذلك بان تعهد الجمعية الى لجنة من رجالها الذين انست فيهم القدرة على التوليد بالذوق ، واتساع الافق وغزارة المادة وكثرة الاطلاع ، ثم تشرع هذه في عملها الفني الجليل فتجمع لديها «مادة معتبرة» مما انتجته قرائح الشعراء والكتّاب في العصر الحديث ثم تبتديء في الاختيار بتدقيق محكم لتكون النتيجة برهانا على الزمن ، وعندئذ تجمع ما اختارته بين دفتين وتدعوه «النموذج المدرسي» لمدارس جمعية العلماء أو بما تشاء ويطبع الكتاب ويصبح رسميا به تجرى الاختبارات السنوية بجميع المدارس في المحفوظات العربية الجزائرية .. وبهذا العمل البسيط — كما اشرت — تكون الجمعية قد اسدت يدا بيضاء للأدب الجزائري والأدباء وحملت الناشئة الجديدة على ان ترضع مع العلم «شيئا حبيبا» وهو ان في وطنها شعراء مجيدين وكتابا فنيين لتستقبل الحياة فخورة بهم متطلعة الى انتاجهم البديع .

قلت : شيء جميل واشارة لطيفة ولكن هناك شيئا اظنك لم تفكر فيه حينما اوحت لك الرغبة ببسط رأيك الطريف ..

ذلك الشيء هو ان أدباءنا لا يسمحون بنشر آثارهم ما داموا في الوجود لأن النزعة الذاتية قد ملكت شغاف قلوبهم وهي نزعة مريضة سخيفة لم تعد تروج الا في بلادنا وما لف لفها في هذه السبيل . فلعلك أعددت علاجا لهذه «المشكلة» التي وقفت أمام كثير من المشاريع الادبية عندنا ..

وكان يسرح بصره في المكتب معجبا بتأثيثه الجميل مقبلا على حديثي بأذنيه يلتهمه التهاما . ولما نطقت بكلمة «المشكلة وعلاجها» انتفض انتفاضة محكمة الاعصاب وارفض عرقا .. وسكت برهة ثم فتح محفظته وأخرج ملفا ودفعه الي فتأملت فاذا عنوانه هذه الجملة : «ما فائدة الطب لمن كان على باب الهلاك اذا كان الطبيب في شغل عنه ؟ وما ربح الأمة من هذه الزعامة المزعومة التي يتقعر بها ادباؤنا الكرام ؟ وما هذه الاقنعة الخضراء التي يتسترون بها زاعمين ان لا يرفعها الا الموت الاحمق ؟ فهل كانوا مؤمنين برسالتهم ؟ و هل كانوا صادقين في نيتهم ؟ وهل كانوا ثابتين فيما يدعون ؟ انني لأتهمهم في وطنيتهم ان ظلوا على هذا الجنون ! وأتهمهم في انتاجهم وايمانهم به ، وأعدهم بأن الناشئة ستعرف قيمتهم وتعتبرهم في المقبورين مع انتاجهم قبل ان يقبروا واياه ..»

قلت : ما شاء اللّه ! ما هذا الشرر الذي يتطاير من هنا وهناك على هذه «البرانس» السندسية التي تحلم بالخلد والخلود ؟ وما هذه السمائم المرسلة التي تلفح خدود الاوانس «المتحجبات» فتجرحها جرحا ؟!

قال : وهل تؤثر الخطرات في الصخور والجلاميد ؟ اليس الأولى بهذه الجبال الثرثارة ان تقلع بالديناميت والالغام .

قلت : ولكني اخشى على هذه الكلمة ان تشم منها «البصائر» تجنيا وقسوة على الادباء فتعدل عن نشرها .

قال : انا لا أكتب «للبصائر» اذا كتبت ولكن المغناطيس يجذبني فانجذب ..

قلت : ولكنها الوحيدة التي رأيتك ترسل اليها ولا تنشر لك الا بمقدار فكأنها «الحبيبة» تعشق وتأبى عليها عواطفها ان تعلن الحب ..

واردت ان اصرفه عن الموضوع برفق فقلت : ماوراءك من الكتب الجديدة الم تقرأ «مع حمار الحكيم»(1)

قال : بلى ، وقد طحنته وغربلته وهيأت له «البوليغراف الادبي» للفحص الفسيولجي .

قلت : حسنا ، ولا شك انه سيكون مقالنا الجديد لمجلة «البصائر» وليفعل الله ما يشاء .

ونهض متثاقلا ، فسلم ومشى مهموما متثاقلا * .

---

(1) وقد نشرت فعلا كلمة عن كتاب (مع حمار الحكيم) في جريدة البصائر ، وهي منشورة الآن ضمن كتابنا (تجارب في الأدب والرحلة)

* نشرت في البصائر عدد 231 29 ماي ، 1953

الفهـــرس

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية
الرغاية ـــ 1986

السعر في الجزائر : 19,00 د.ج
٩٢٠

المؤسسة الوطنية للكتاب — الجزائر